بلوغ المرام في خلوة خلوتية الشام

ويليه

النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية

ويليه

الوصية الجلية للسالكين طريقة الخلوتية



تأليف

الشيخ العلامة الأستاذ

قطب الدين مصطفى بن كمال الدين البكري

المتوفى ١١٦٢ هـ

تحقيقه وتعليقه

الشيخ أحمد فريد المزيدي



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي

الحمد لله الذي وفق من شاء من أحبائه لاتخاذ الخلوات، وقدس سر إبراهيم عن أن تجنح ليثني من المكونات، وجعلها علمًا للأحدية ومثالاً للمقامات الفردية ومجالاً للذات، وطهر بصائرهم بشهوده عن شهود المحدثات، فقامت عندهم على شهود الوحدانية دلائل وآيات، وتجلى عليهم فيها بأعلى ما يكون من التجليات، وأفاض على أهلها أنواع الإحسانات والهبات، وأفرغ عليهم ذلك من شرائف لطائف الحضرات، وأشغلهم فيها بتخليص قلوبهم من سائر التعلقات، وأطلقهم فلم يتقيدوا بما يبدو لهم من أسرار علويات، وسيرهم على مراكب التحقيقات، في البحور الزاخرات، وأخلع عليهم ملابس الولاية وحققهم في حقائق الأسماء والصفات، وحرك هممهم إلى الكشف عن أسرار بكار الذات، وأعطاهم على مقدار ما عندهم فيها من الاستعدادات.

أحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا فيها من الإمدادات، وأشكره على ما جاد علينا بها من التفضلات، وأثنى عليه بالثناء اللائق به في الماضي والحال والآت.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا كشف ستائر الأسرار لأهل العنايات، وأصلي وأسلم على المبعوث بالمكرمات، الذي كان في حراء عجيب الخلوات، وكان له اليد الطولى في الرياضات والمجاهدات، لنقتدي به في سائر الحالات، وعلى آله وأصحابه الذين نالوا به أقصى الغايات، وقد احتموا من سائر الآفات، فلم يزالوا على بحر الشريعة للظوامئ سقاة، وللطائفيين المجدين هداة، وعلى التابعين لهم ما تعاقبت الأوقات، وما دامت الأرض والسماوات، وسلم تسليمًا.

أما بعد.. فاعلم أيها المريد علمك الله من علومه الوهبية، وأسراره التي ليست

بكسبية، بما ليس عليه من مزيدة أن طريق القوم - رضي الله تعالى عنهم - مبنى على أسرار خفية وإشارات علية ورموز عجيبة وألغاز غريبة، ولا يدري تلك الأمور إلا من سار في طريقتهم، وكشف له عن سر حقيقتهم، واستظل بظل ركبهم وترقى للقرب بالصدق في حبهم، فإذا فهم تلك الأشائر وردت عليه واردات البشائر، وإذا كتم ما أطلعه الله عليه، وأخفى ما ظهر من الأسرار لديه زاده الله من فضله الوافر، وأمده بمدده السافر، قال الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7]، فشكر الأسرار صونها عن مشاهد الأغيار؛ لأن ليس في كشفها لهم قائد.

ومثاله كمن قدم لأهل القبور مائدة، فالناس على **ثلاثة** أقسام **مُنكر**: وهذا لا يجدي معه الكلام، بل الكلام معه في مثل ذلك حرام، **وعَارف**: وهذا لا يحتاج؛ لأنه صاحب المقام، **وجَاهل مسلم**: وهذا الذي يتكلم معه لبيان المرام.

ولهذا لما سأل ابن عباس سيد الناس ﷺ وشرف وعظم بقوله: يا رسول الله أأحدث بكل كلمة أسمع منك؟ قال: «**نعم، إلا أن تحدث بحديث لا يبلغ عقول القوم ذلك الحديث، فيكون على بعضهم فتنة**»[1] ففي قوله ﷺ: «**على بعضهم**» فيه إشارة للمنكر، فإن المسلم والعارف لا ينكران ذلك.

وفي رواية عنه ﷺ أنه قال: إني لأعلم في قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:12]، ما لو قلته لكفرتموني، وفي قول أبي الدرداء: لو حدثتكم بكل ما أعلم لرميتموني بالقشع، وفي قول سليمان: لو حدثتكم بكل ما أعلم لقلتم: رحم الله قاتل سليمان، وفي قول أبي هريرة ﷺ: أعطاني خليلي جرابين من القلم الواحد بثثته لكم، والآخر لو قلته لقطع مني هذا الحلقوم.

وفي قول الإمام الكامل من الأسرار الإلهية حامل الليث الغالب سيدي علي بن أبي طالب: إن بين جنبي علمًا لو قلته لخفتم من هذه، وفي قول الشريف الرضي حفيد بن علي:

(1) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (97/6).

يـا رُبَّ جَـوهَرِ عِلـمٍ لَـو أَبـوحُ بِـهِ   لَقيـلَ لـي أَنـتَ مِمَّـن يَعبـدُ الوَثَنـا

وَلَاستَحَلَّ رِجـالٌ مُـسلِمونَ دَمـي   يَـرَونَ أَقـبَحَ مـا يَأتونَـهُ حَـسَنا[1]

إشارة إلى أنهم أطلعوا على أمرين يجب كتمها فكتموها، وعلوم ضحوا بها، وطولبوا في تعظيمها فعظموها، ولو عظموه في النفوس لعظمانه؛ أي: أهل العلم الإلهي اللدني، فإنه من الحكمة التي يجب كتمها من غير أهلها، ولا ينكر هذا إلا أهل العزة بالله المشار إليهم في الحديث النبوي وهو قوله ﷺ: «**إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله**»[2] فإن تكلموا به أنكره أهل العزة بالله، فيجب على كل عالم من العلوم التي سرها مكتوم أن يخفيها عن غير أهله، فإنه عند غيرهم موهوم لحديث: «**حَدِّثوا الناس بما يعرفون، أتُحِبُّونَ أن يُكذَّبَ الله ورسولُهُ**»[3].

والحديث: «**علم الباطن سر من أسرار الله تعالى وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده**»[4] فكيف يجوز إفشاء سر من أسرار الله تعالى؟! لأنه ربما كان في إفشائه إفشاء سر الألوهية، وإفشاؤه كفر عند أهل التحقيق.

واعلم أنها لا تبدو الأسرار لدى أهل الإنكار، إلا من مغلوب بالحال وهذا ناقص عن درجة الكمال، فلذا ترى بعض السالكين إذا غلب بذلك، وتكلم عن بعض ما هنالك أنكرت عليه الأصحاب والخلال، ورموه بالزور والبهتان، وترقوا منه إلى سب من ينتسب إليه، ومن يعول في ذلك المشرب عليه، ثم يترقون إلى سب أهل ذلك الطريق، ويستطيلون على أحوال أولئك الفريق فربما أورثهم سوء الأدب إلى العطب - نعوذ بالله من ذلك - فلهذا وجب الكتمان في مثل هذا الشأن،

---

(1) البيتان للحلاج - قدس سره - من بحر البسيط.

(2) ذكره السيوطي في «اللآلي المصنوعة» (202/1)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (353/1). وبلفظ «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله**» رواه الديلمي عن أبي هريرة، (210/1، رقم 802)، وضعفه المنذري (59/1) وعزاه لأبي منصور الديلمي، وأبي عبد الرحمن السلمي في «الأربعين» التي له في التصوف. وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (39/1): رواه أبو عبد الرحمن السلمي في «الأربعين» له في التصوف بإسناد ضعيف.

(3) رواه البخاري (229/1).

(4) رواه الديلمي في الفردوس (42/3).

والأولى ترك التكلم ولو بين الأقران، لما لا يخفى في ذلك من الدسائس النفسية، ولما في ذلك من المقامات العلية، وأولى من ينشد للمنكر على أهل الأحوال قول من قال:

وإذا كنـت بالمنـاظر عـزة ثـم أبـصرت حاذقًـا لا تمـارى

وإذا لـم تـر الهلال فـسلم لا نـاظر ولـو بالأبـصار

واعلم أن كل طائفة قد اصطلحت على أشياء يدركون بها جمالاً من أسرار طريقهم حتى لا يدعيها من لم يكن من سالكيها، فوضعت الأحمدية والقادرية والشروعية وأمثالهم علامات مختلفة، واصطلح كل منهم على أمور ورموز تحتها إشارات عرف ذلك من عرفه، وكذلك الخلوتية قد اصطلحوا على أشائر يعرفها من سار في تلك الفيافي والقفار، وقد وضعوا لمريدهم هذه الكسوة المعلومة عندهم؛ ليعرفوا بها من غيرهم لكنهم لما اقتربوا على أقسام فزاد بعضهم في الكسوة ونقص؛ ليعرف من بينهم فمنهم من يجعلها اثنين وثلاثين ضربًا وهم خلوتية الشام، ومنهم من يجعلها ثمانية وأربعين ضربًا، ومنهم من يجعلها أربعين ونحن منهم، ويجعل في وسطها إشارة دائرة الهوية، ومنهم من يجعل في وسطها زرًا، ومنهم من لم يجعل لها شيئًا، والجميع لهم في ذلك إشارات يفهمها بها أهلها.

وقد ذكرنا بعض أسرارها في «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية»، وكل طائفة من هذه الفرقة قد اصطلحت على أوراد وأسماء يلقنونها لمريديهم، ويأمرونهم بها والكل مطلوبهم واحد، وإنها طريق كل منهم إلى الوصول من القرب للحق سبحانه وتعالى.

قال بعضهم: الطرائق بعدد أنفاس الخلائق، وكلها حق لا ريبة فيها، لكنها تتفاوت الأذواق، فكل من سلك في طريق ورائها أقرب من غيرها بحسب استعداده أخذ في التشويق في تلك المراتب العلية والمنازل اليقينية الحقية؛ لأن من كمَّل في الطريق، وحصل له كمال الاطلاع على مراتب التحقيق اطلع على جميع ما اصطلحت عليه أهل الطرق إلى الله، وأدرك ما رمزوا به، فقد ذلك وينادي للطالبين لسلوك ما قد شهده أقرب للراغبين، ومعلوم أن الواجب على المريدين يعتقد أن طريقه أقرب الطرق إلى الله وأعظمها، فلهذا قلت في قصيدة:

فيا صاحبي إن رميت تدرك للعلى فلا تقصد إلا سبيل طريقتي

فطرق حبيبي ليس يمكن حصرها وأعظمها حقًا طريقي وبيعتي

وإن من جملة ما اصطلحوا عليه الخلوتية عندنا في ديار الشام اجتماعهم في كل عام ثلاثة أيام بلياليها على الذكر والعبادة، وإقامة الأوراد لنيل السعادة، وقد اصطنعها العارف الإمام والكامل الهمام ذي المقام العالي الشيخ أحمد العسالي - قدس الله سره وطيب ذكره - عندنا في ديار الشام، وهذه الخلوة التي يفعلونها هي طريقة الشيخ إخلاص خليفة الشيخ قايا خليفة الشاه ولي الشيخ أحمد المذكور له اتصال بطريق الشاه ولي، فإنه قد أخذ الطريق عنه، وهي طريقة مستحسنة وجعل لها شروطًا كما هو في طريقهم كشروط الخلوة المعلومة عند أهل الطريق من تقليد الطعام والمنام وعدم الأكل والشرب والكلام إلا بذكر الملك العلام، أو لعزوة المقام وتغيير الخُلَّاس والجُلَّاس والأنقاض، وعدم اشتغال القلب بما عليه الناس وأكلهم للحريرة وغير ذلك من الشروط، ولكنها ليست كالحريرة التي يفعلونها الآن فإنهم يتقنون فيها.

ولقد أخبرني رجل من جماعة العارف الرباني الشيخ عيسى الكناني أنه كان يطبخ الحريرة مائعة زرقاء حتى أنها كانت لا تُأكل إلا للضرورة، وكان في زمانه كل رغيف يبلغ ثلثي أوقية، وكان يقصد بذلك عدم جوع الإخوان منها؛ لأن كثرة الأكل تستدعي كثرة الشرب وكثرة الشرب تستدعي كثرة النوم، وبكثرة النوم يفوت المقصود منها، وكان ذلك منه قيامًا بحق المريد، فإن الجوع والعطش كما ذكره بشر الحارث: يورثان صفة الفؤاد، ويميتان الهوى ويثمران العلم الدقيق، وأهل الخلوات قصدهم نيل هذه الأحوال السنية ليس إلا.

وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[1] و«**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[2] وإذا وجد الشيخ بعض المريدين قد خرجوا عن سياج الطريق، ولم ينههم عن ذلك فقد غشهم، وليس للشيخ أن يعامل الكاملين معاملة السالكين، والجوع وإن لم يكن يلازم للمحققين، فهو يورثهم أسرار علية، وأما السالكون فهو عليهم كالأمور

---

(1) رواه البخاري (108/1)، ومسلم (241/1).

(2) رواه مسلم (349/1)، وابن ماجه في «صحيحه» (69/7).

الفرضية، ولهذا قال بعضهم: لو يباع الجوع في السوق لوجب على المريدين أن يشتروه أسوة.

وحكي عن ذي النون المصري أنه قال: ما شبعت قط إلا وعصيت، أو هممت بالمعصية، وعلى هذا فاللازم تقليل المأكل في غيرها فكيف فيها خلافًا لما يفعله بعض من يصافيها، فإنه يأكل فيها مثل أكله قبلها خصوصًا إذا وضعوا دبسًا على الحريرة كما يفعله بعض الناس، وكذلك في ليلة شرب الماء والدبس يشرب بعضهم ثلاثين باد وأكثر، وهذا أيضًا مخالف لشرطها.

وقد حقق شرط الجوع سيد المحققين، وإمام المدققين خاتم الولاية سيدي محيي الدين ابن العربي - قدسنا الله بأسراره، وأفاض علينا من سطعات أنواره - في رسالته «حلية الأبدال» قال فيها: الجوع جوعان: **جوع اختيار**: وهو جوع السالكين، **وجوع اضطرار**: وهو جوع المحققين، فإن المحقق لا يجوع نفسه، ولكن قد يقل أكله إن كان في مقام الأنس، وإن كان في مقام الهيبة كثر أكله، وكثرة الأكل للمحققين دليل على صحة سطوات أنوار الحقيقة على قلوبهم بحال العظمة من مشهودهم، وقلة الأكل دليل على صحة المحادثة بحال المؤانسة من مشهودهم، وكثرة الأكل للسالكين دليل على بعدهم من الله تعالى، وطردهم عن بابه واستيلاء النفس الشهوانية البهيمية بسلطانها عليهم، وقلة الأكل لهم دليل على نفحات الجود الإلهي على قلوبهم فيشغلهم ذلك عن تدبير جسومهم، والجوع بكل حال ووجه وسبب داع للسالك والمحقق إلى نيل عظيم الأحوال من السالكين، والأسرار للمحققين ما لم يفرط بصحو من الجائع، فإنه إذا أفرط أدى إلى الهوس، وذهاب العقل وفساد المزاج.

فلا سبيل للسالك أن يجوع الجوع المطلوب لنيل الأحوال إلا عن أمر شيخ، وأما وحده فلا سبيل.

ثم قال: وللجوع حال ومقام، فحاله الخشوع والخضوع، والمسكنة والذلة، والافتقار وعدم الفضول، وسكون الجوارح وعدم الخواطر الردية، وهذا حال جوع السالكين، وأما حاله في المحققين فالرقة والصفاء، والمؤانسة وذهاب الكون[1]،

---

(1) قال القاشاني: الكون يعني به كل أمر وجودي. كون الفطور غير مشتت للشمل معناه: ما =

والتنزه عن أوصاف البشرية بالعزة الإلهية، والسلطان الرباني ومقامه المقام الصمداني وهو مقام عالي له أسرار وتجليات وأحوال ذكرناه في كتاب «مواقع النجوم» في عضو القلب منه، ولكن في بعض النسخ فإني استدركه في مدينة «بجاية» سنة سبع وتسعين وخمسمائة،وكانت قد خرجت نسخ كثيرة، ولم يثبت فيها هذا المنزل.

ثم قال: هذه فائدة الجوع لصاحب الهمة، لا جوع العامة فإن جوع العامة لصلاح المزاج، وتنعم البدن بالصحة لا غير، والجوع يورث معرفة الشيطان - عصمنا الله وإياكم منه - انتهى.

فتدبر كلام الشيخ ﷺ في هذا المقام تبلغ المرام، وقد ورد عنه ﷺ أحاديث كثيرة في هذا الباب، وروى صاحب «الرسالة» عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاءت فاطمة رضي الله عنها بكسرة خبز لرسول الله ﷺ فقال: «**مَا هَذَا؟ قَالَتْ: قُرْصٌ خَبَزْتُهُ، فَلَمْ تَطِبْ نَفْسِي حَتَّى آتِيكَ بِهَذِهِ الْكِسْرَةِ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**»[1].

وفي رواية جاءت فاطمة رضي الله عنها بقرص شعير. انتهى.

وعنه ﷺ: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»[2].

=

عرفته من كون فطور الوحدة والكثرة غير موجبة لتشتت شمل جمعيتها، لأن وصف الذات سواء كان وحدة أو كثرة، أو غير ذلك. فإنه إنما يطلق عليه كون وصفاً باعتبار المرتبة الثانية وما بعدها من المراتب، إما بحسب التعين الأول الذي هو حقيقة الوحدة الحقيقية، فإن الوصف إنما يعتبر من حيث باطنه الذي هو شأن الذات في هذه المرتبة الأولى، فلا يصح فيها أن يكون بينه وبين الموصوف به معاندة، ولا غيرية، ليصير ذلك موجباً لتفرقة جمع الذات وتشتت شملها، فإن الفرق والتشتت بالصفة والموصوفية من توابع الكثرة التي لا يصح اجتماعها بالوحدة الحقيقية لتنافيهما.

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (314/1).

(2) رواه ابن ماجه في «السنن» (243/10)، والنسائي في «الكبرى» (177/4).

وعنه ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**»[1] فيقضوا مجاريه بالجوع، ونقل صاحب «الرسالة» قال: كان أبو سليمان الداراني يقول: لأن أترك عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم الليل إلى آخره.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق - قدس الله سره -: إن بعض الشيوخ كان يقول قيل لبعضهم ألا تشتهي؟ قال: أشتهي ولكن أحتمي، وقيل لبعضهم: ألا تشتهي؟ فقال: أشتهي أن أشتهي هذا أتم والحكايات والأخبار في هذا كثيرة.

ولنرجع لما كنا بصدده، فسمعت من بعض الأشخاص الأذكار على ما هم فيه من ترك الأكل إلا الحريرة، وعدم شربهم الماء وأنكر ما يفعلونه في آخر ليلة عقب «ورد الوسائل لكل سائل» الذي وضعه الشيخ أحمد العسالي ﷺ من الخلوة وكيفيتها تأتي، فأحببت أن أبين في هذه الوريقات بعض أسرار ما اصطلحوا عليه فيها، **فالأول**: لما سموها خلوة مع أنها تشبه الاعتكاف؟ والخلوة لها شروط غير ما يفعلونه، وما سر تسميتهم لها بذلك؟ وما السر في اجتماعهم؟ وما السر في جعلهم لها في المسجد؟ وما السر في هذه الخلوة؟ وما سر استماعهم من القوالين فيها؟ ولم كانت ثلاثة أيام؟ وما سر خلوتهم في أيام الحسوم؟ وما سر إيقادهم القناديل والشمع فيها؟ وما سر نومهم بعد الإشراق؟ وما سر عدم حملهم للدراهم فيها؟ وما سر شربهم الماء والدبس في آخر ليلة منها؟ وما سر دخولهم في ليلة الثلاثاء؟ وما سر خروجهم في ليلة الجمعة؟ وما سر من يدخلون الخلوة يوم الخميس ويخرجون يوم الأحد؟ وما سر فعلهم المولد أول ليلة وآخر يوم منها؟ وما سر الاكتحال في آخر يوم منها وعدم الاكتحال فيها؟ ومن أين لهم الدليل على إقامة الذكر اللساني ليلاً ونهارًا مع أن الشعراني ذكر أنه جرب ذلك فوجده مما يقسي القلب؟

وقال في معنى قوله تعالى: ﴿**ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب:41]، هو دوام الشهود، وسميت هذه الرسالة «**بلوغ المرام في خلوة خلوتية الشام**» فأقول ومن سبحانه أرتجي القبول، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(1) رواه البخاري (408/7)، وأبو داود (451/13).

اعلم أيها المريد الطالب، والسالك الذاهب أن الخلوة التي ذكرتها سادتنا العارفون وأئمتنا المحققون ليست على هذا المثال، ولا على طريقة هذا المنوال، بل ذكروا لها شروطًا غير شروط هذه من بعض الوجوه، فإنهم ذكروا فيها ألا يطلع أحد أن مراد الخلق إلا للخادم والشيخ وأن يكون بيتها الذي هو معد لها على قدر قامته، وفي العرض قدر جلسته، وفي الطول على قدر سجوده، وأن يسد عليه فيها منافذ الضوء إلى غير ذلك من الشروط.

وقد أفرد شروطها سيدي محيي الدين في رسالة وشرحها الجيلي - قدس الله سرهما - مع أنهم قائلون بالخلوة المذكورة فاعلون لها لكن الظاهر أن فرقة خلوتية الشام، وهم مشهودون في حلب ومصر وغيرهما من البلاد لما رأوا ضعف الهمم عن فعل الخلوة الأربعينية، وغيرها لما غالب الناس الآن قد جبلوا عليه من حب النزهات، وطلب الراحات ففعلوا لهم هذا ليصطادوا فيها منهم أصحاب الهمم العلية والتوجهات السنية، فإن العارف كالماء يتلون بلون آنية أي زمان، وتلونه ليس كتلون غيره، بل من تمكنه في المقامات ومعرفته بها، وليعطي كل طالب على قدر ما يناسبه، وليوافق أغراض أهل زمانه.

ثم بعد ذلك يجذبهم إلى المكون عن أكوانه، ومعلوم أن المرشد كالمجتهد فإذا قام عنده دليل على أن ما يفعله هو الذي يناسب لأهل الزمان، وبذلك ينجذبون إلى مقام العرفان، فيجوز له فعل ذلك وإن كان بحسب الظاهر فيه مخالفة للطريق، فهو في الباطن موافق لمقصود أولئك الفريق، فإن مقصودهم من دعوة العباد، والقيام بوظيفة الإرشاد بأي وجه كان من أوجهه، والمقتضي لذلك اختلاف الأحوال، وموافقة من قال: إن لكل زمان دولة ورجال.

ثم بعدما تقرر هذا فاعلم أن الذي يظهر أنهم إنما سموه خلوة؛ لأنه لما غلبت عليهم مشاهدة الوحدة، وغلبة الكثرة فيها سموها خلوة؛ لأن العارف بالله تعالى أوقاته كلها في خلوة؛ لأن الخلوة عند القوم هي: محادثة السر مع الحق سبحانه وتعالى بحيث لا يرى غيره، والمقصود الأعظم من الخلوة التي ذكرها القوم - رضي الله تعالى عنهم - التوصل بها إلى شهود هذا السر والتحقق فيه؛ لأن خلوة الظاهر تجلوه مرآة الفؤاد من صدى المحدثات التي هي ظلمات متراكمة متولدة من الوهم والخيال حتى طمست لعين القلب، وحجبته عن شهود ذلك السر، فإذا أخذ

المريد في الصيام والقيام والذكر المدام، وقام بما ذكروه من الشروط لاحت له في ذلك المقام لوائح السعادة، وترقى درجة المرادية بعد الإدارة، فإذا تجلى عن الأوصاف البشرية، وتجلى بأخلاق الملكية وانجلت للقلب الأنوار الغيبية، والأسرار الكشفية ووفق لشكر هذه النعمة الجلية، وأذن له في الدعوة والإرشاد، والهداية لنيل السداد وبلوغ المراد، فيفوز هنالك من يفوز، ويجوز على تلك المراتب من يجوز، ويجوز عليها بالفضل من يجوز، فالفائز من وفق لاتباعه، والهالك من سعى في القناعة، فيخاطب عند ذلك أهل كل زمان على قدر حالهم، ويدعوهم على قدر سعة مجالهم، فيورد أخصائه على العين الصافية، ويسقيهم من عين ماء الحياة كؤوسًا وافية، ويحققهم بما هم عليه من الصفات، ويلوح لهم عن دقائق أسرار الذات، فإذا تمكنوا من ذلك كشف لهم عن الأسرار اللاهوتية، وألقاهم في بحار الأحدية، فيرتقون في تلك الرياض ويضربون من تلك الحياض، فعلى هذه الشربة تسلي الأرواح وسر هذا من باح دمه يباح، بل دون مرامها نظائر سره، ويطلب نظرة منها تذوب النفوس.

قال العارف المحقق سيدي عمر بن الفارض - قدس الله سره -:

أرومُ وقد طال المدَى منك نظْرَةً   وكم من دماء دونَ مَرْمَايَ طُلّتِ

قال سيدي الشيخ محيي الدين - قدس الله سره - في الباب التاسع والسبعين من «الفتوحات المكية» في ترك الخلوة، وهو المعبر عنه بالجلوة بعد ما عقد للخلوة بابًا:

إذا لم ير الإنسان غير إلهه   الذي كل عين فالخلاء محال

فإن كنت هذا كنت صاحب خلوة   ولله فيك فيصل ومقال

ثم قال: اعلم أن الكشف يمنع من الخلوة، وإن كان فيها فإن الحجاب لها فإذا كُشِفَ علم أنه لم يكن في خلوة، واتخاذ الخلوة المعهودة دليل على جهل متخذها، فإنه مثل الكشف يعرف جهله فكل من جهل أنه جاهل فهو صاحب جهلين، ومن عرف جهله فهو ذو جهل واحد، والذين علموا أن الظاهر من كونه ظاهرًا في أيعان العالم، وما ثم سواه فهم في خلوة في نفوسهم إذ لم ينظروا إلى ما ظهر فيه، فأورثهم في الملأ والخلوة، فلا يصح لهم الخلوة من هذا الوجه، فمن

الناس من يرجح صاحب الخلوة، ومن الناس من يرجح صاحب الجلوة، فالاسم الباطن والأول يطلبان الخلوة، والاسم الظاهر والآخر يطلبان تركها، وهو الجلوة فأنت لأي اسم غلب عليك، ولا مفاضلة ومال الخلوة إلى المقلوب من المال، وهو الملأ فالخلوة دينوية، والملأ أخروية والملأ خير، انتهى.

وقد جعلنا على ثلاث مراتب: فخلوة سالك، وخلوة عارف، وخلوة محقق، ذكرنا ذلك في رسالة سميناها «هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب»، وإذا فهم المختلي لأسرار خلوته، وعرف رموز جلوته ينشد ويقول بعد شربه من كاسات الشمول، ومشاهدة هاتيك الطلول، وإدراك المأمول من الوصول:

خلونا على رغم الحسود مع الحب ... قلنا متانا بالفواصل والقرب

وخاطرنا فيه بأرواحنا لذا ... إذا ما ذكرناه فينا من الحب

سبانا بمجالاه البديع جلاله ... فلله ما أحلا بمشهده سلبي

أيا خالي الأحشاء قم نحو خلوتي ... لتملى من الأسرار في حانة الجذب

أيا خلوة فاقت على كل خلوة ... بحاناتها الأنوار تبدو لا على حزبي

ففي خلوتي ألقي السرور مساوري ... بأسرار بسط ينبغي عني بها كذبي

فيا أيها الساعي لتعمير قلبه ... تمتع بخلوتي ولازم على الشرب

وإن مت وإن تجلى عليك عرايسا ... جميع البرايا عن شمائلها تنبي

وتدرك معناها ونفرق سرها ... وتفهم سرا ليس يوجد في الكتب

فهيا لها لا تلتفت نحو غيرها ... ولا تختشي فيها من اللوم والغيب

ألا يا فاقي فانشد إلي بخلوتي ... ويا ريح قرب الوصل نحوهم همي

ففي خلوتي قلت الأماني والمنا ... وطرب خمور الذكر بها داني

وقد سكرتني نسمة لي بها سرت ... فهام بها عقلي وفكري كذا بي

وقلبي نشوان صافي شرابها ... ولست بعد لي أميل إلى قلبي

فبالله يا ساقي أدر صرف كاسها ... ولي فاسعفوا بالله بالود يا صحبي

وأني بها ما عشت صبا مولها ... وحبي لها حتى القيامة هو حبي

وللهجر فيها قد أذقنا بحفا ... وتبنا فأضحى الطيب عن طيبنا ينبي

وفيها لنا ليلى عن الوجه استقرت ... فنورت الأكوان في الشرق والغرب

وفيها شربنا الخمر صرفًا مقدسًا ... ففينا وهمنا مذ تجلت على القلب

وفيها سكرنا مذ شربنا قديمها ... ولاحت لنا الأنوار من داخل الحجب

ألا أيها القصاد شربت مدامها ... تفانوا أو لوذوا يا صحابي بالركب

فخلوتنا تدني إلى منزل اللقاء ... تقول لمن رام القرب لذ بي

فإني طريق للسراة لدامة ... إذا رامت العشاق وصلاً إليَّ سر بي

وإني لهم نور يسيرون بي إلى ... منازل حي الحب ذي المورد العزب

فيا خلوتي لازلت كحفًا لجلالتي ... مد الدهر ما فاض السحاب على الترب

عليك سلام الله ما قال مصطفًا ... خلونا على رغم الحسود مع الحب

وأما سر اجتماعهم فيها، فباعتبار الظاهر أن غالب الإخوان لا يحققون إلا لها؛ لكونهم مشتغلين بأمور المعاش، وبعضهم لبعد المسافة، فإذا اجتمعوا فيها وفي اجتماعهم اجتمعت قلوبهم لم يبق من لذائذ الدنيا إلا اجتماع إخوان صفا على إخوان وفا، على ذكر الله تعالى حصول المغفرة، ونزول الرحمة لقوله ﷺ: «**ما اجتمع قوم على ذكر الله، فتفرقوا إلا قيل لهم: قوموا مغفور لكم**»[1].

وفي رواية عنه ﷺ: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، فَيَقُومُونَ حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ: قُومُوا، قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وبُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ**»[2] والأحاديث في فضيلة الاجتماع كثيرة، وليتفقد بعضهم بعضًا، فالميت يخصونه بالفاتحة، والمريض يعودونه، والمديون يحملون معه، والمحبوس يطلقونه، والمضطر يسعفونه؛ لأنه ليس لأحد ملك دون صاحبه، بل لو جاء فقيرهم، وأخذ شطر مال غنيهم بل كله لما سأله المالك عن ذلك، ولا يمن عليه بعده، بل يشهد أن المنة له في

---

(1) ذكره المناوي في «فيض القدير» (409/5).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (10/6).

أخذه وليس لأحدهم أن يقول: متاعي أو مالي أو معي أو عندي، وهم فيما يمتلكون مشتركون، وأيضًا فإن في اجتماعهم حصول الألفة بين قلوبهم.

وأما من حيث الباطن فلأنهم لما شهدوا سر الجمعية الحقية في الكثرة الخلقية، فعندما شهدوا الكثرة في الوحدة، والوحدة في الكثرة غابت في شهودهم نجوم الكثرة، وبقيت شمس الوحدة هذا من حيث شهود الجمع، وأما من حيث شهود جمع الجمع، فهو شهود محو الكثرة في الوحدة، واستهلاكها بها حتى لا يشهد إلا وحدة، لكن من غير محو ولا استهلاك، وهذا مقام الحيرة[1] والدهشة

---

(1) قال الإمام الشعراني في «الميزان الذرية»: الحيرة في الله من كمال المعرفة به، وهي سارية في العالم النُّوريِّ والنَّاريِّ والترابيّ، لأن العالَم ما ظهر إلا على ما هو عليه من العلم الإلهيِّ، وما هو في العلم الإلهيِّ لا يتبدَّل، ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:30] الآية.

فما فُطِر العالَم إلا على الحيرة، وذلك لأن المرتبة الإلهية تنفي بذاتها التقييد عنها، والقوابل تنفي الإطلاق عنها، ولا تشهد إلا صورتها من التقييد. فهذا هو سبب شدة الحيرة في الوجود، ولا أحد أشدَّ حيرةٍ في الله من العلماء به؛ ولهذا ورد أنه ﷺ كان يقول: «زِدْنِي اللَّهُمَّ فِيكَ تَحَيُّرًا»، ومع ذلك فأعلى ما يصل إليه العلماء بالله تعالى من طريق نظرهم مبتدأ البهائم؛ لأنها كغيرها مفطورةٌ على الحيرة في الله ﷻ، والإنسان يريد أن يخرج بما أعطاه الله تعالى من العقل والرؤية وإمعان النظر عن الحيرة التي فُطِر عليها، فلا يصحُّ له ذلك. وعلى هذا الذي قررناه الإشارة بقوله تعالى في حقِّ قومٍ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:44]. فإن التشبيه بالأنعام إنما هو في الحيرة لا في المحار فيه، فليس ذلك نقصًا في الأنعام، وقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾: أي طريقًا لأنهم زادوا على ضلال البهائم وحيرتهم في الله، والحيرة عَمًى بلا شكٍّ، ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء:72]، أعني جاهلاً بالذات، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، كما هو في الدنيا؛ ولذلك كان العارف المحقق عمرو بن عثمان المك يقول في صفة العارفين: وكما هم اليوم يكونون غدًا، فَعُلِمَ أن من طلب معرفة الذات من طريق الفكر والنظر كان مآله إلى الحيرة، كما أن من طلب الواحد في عينه لم يحصل إلا على الحيرة، فإنه لا يقدر على الانفكاك من الجمع والكثرة في الطالب والمطلوب، وكيف يقدر على ذلك، وهو يحكم على نفسه بأنه طالبٌ، وعلى نفسه بأنه مطلوبٌ، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ في شيءٍ، أو يحلَّ فيه شيءٌ؛ لأن الحقائق لا تتغير عن ذاتها؛ إذ لو تغيرت لتغير الواحد في نفسه، وتغيير الحق في نفسه وتغيير الحقائق محالٌ.

واعلم أن حيرة أهل الكشف والشهود أعظم من حيرة أصحاب النظر في الأدلة؛ لاختلاف الصورة عليهم عند الشهود، فإن أصحاب النظر والفكر ما برحوا بأفكارهم في الأكوان، فلهم أن يحاروا ويعجزوا، وهؤلاء ارتفعوا عن الأكوان، وما بقي لهم شهودٌ إلا فيه، فهو مشهودهم، فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النُظّار في معارضات الدلالات، وفي الحقيقة ما في الوجود إلا الله، ولا يعرف الله إلا الله، فمن وصل إلى الحيرة من المقربين فقد وصل، والسلام.

وسمعت شيخنا ﵁ يقول: العلماء بالله على أربعة أصنافٍ: صنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق النظر الفكري، وهم القائلون بالسلوب. وصنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق التجلي، وهم القائلون بالثبوت والحدود التابعة للصورة. وصنف: يحدث لهم علمٌ بالله بين الشهود والنظر، فلا يبقون مع الصورة في التجلي، ولا يصلون إلى معرفة هذه الذات الظاهرة بهذه الصورة في أعين الناظرين. وصنف: ليس واحدٌ من هؤلاء الثلاثة، ولا يخرج عن جميعهم، وهو الذي يعلم أن الله تعالى قابلٌ لكل معتقدٍ في العالم، من حيث أنه عين الوجود، وهذا القسم ينقسم إلى صنفين: صنفٌ يقول: عين الحق هو المتجلي في صور الممكنات. وصنفٌ يقول: أحكام الممكنات، وهم الصور الظاهرة في عين الوجود الحق، وكلٌّ قال ما هو الأمر عليه، ومن هنا فشت الحيرة في المتحيّرين، وهي عين الهدي في كل حائرٍ، فمن وقف مع الحيرة حار، ومن وقف مع كون الحيرة هدًى وصل، ومن وصل لا يرجع، لأن من المحال الرجوع بعد كشف الحجاب إلى الحجاب؛ إذ المعلوم لا يجهله العالم بعد تعلق العلم به. ومرادنا بالوصول الوصول إلى السعادة الدائمة. وهو معنى قوله: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصرَه» الحديث. فعُلِمَ أن من أعظم غلطات أهل النظر طلبهم الخروج عن الحيرة بالخلوة والرياضة، وذلك لا يكون لهم أبدًا، لأن التجرد عن المواد يُعقل ولا يُشهد، ولا يُسلم لهم عقلٌ من حكمٍ ولا خيالٍ؛ لأن كل ما سوى الله حقيقته الإمكان، والشيء لا يزول عن حكم نفسه، ولا يتعقل إلا ما كان على صورته، تعالى الله عن ذلك.

وكان شيخنا ﵁ يقول: من الرجال من زالت عنه الحَيرة في الله ﷿. فقلت له: كيف ذاك؟ فقال: إذا تجلى الله تعالى للقلب في غير عالم المواد زالت الحيرة، وعلم من الله على قدر ذلك التجلي من غير تعيينٍ؛ إذ لا يقدر أحدٌ على تعيين ما قد تجلّى له إلا كونه تجلى في غير مادةٍ لا غير، ثم إذا رجع من هذا التجلي إلى عالم المواد صحبه تخيل تجلي الحق تعالى.

فما من حضرةٍ يدخلها إلا ويعرف الله تعالى في تجليها؛ لأنه قد ضبط من معرفته أولاً ما ضبط، فيعلَم أن التجلي قد تحوّل في أمرٍ آخر، فلا يجهله بعد ذلك أبدًا، ولا ينحجب عنه، فإن الحق تعالى ما تجلى لأحدٍ هذا التجلي، فانحجب عنه بعد ذلك أبدًا. فإذا نزل العبد إلى عالم خياله وقد عرف الأمور على ما هي عليه مشاهدةً بعد أن عرفها قبل ذلك علمًا وإيمانًا

المشار إليه بقوله ﷺ: «**سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**»[1] ويقول الصديق الأكبر ﷺ: العجز عن درك الإدراك إدراك، ويقول خاتم الولاية المحمدية - قدس الله سره - ولست أدرك من شيء حقيقته، وكيف أدركه وأنتم فيه؟! فعندما شهدوا هذا المشهد لم يشغلهم شهود الكثرة عن الوحدة، ثم إنهم لما علموا أن في هذه الحضرة حجب العزة والكبرياء مسدولة لا يمكن رفعها جلسوا للذكر له به، وإلا كان اللازم للمشاهد أن يصمت فلا يجهر؛ لأنها حضرة همس لا نطق فيها.

ومن هنا قال العارف الواقف على هذه المواقف:

فترك الذكر أفضل كل شيء ... فشمس الذات ليس لها غروب

وهذا مقام صاحب مقهور فيه تحت حاله، فإذا ارتقى عنه وشهد الفرق الثاني جاز له الذكر، ولو كان في مقام الشهود؛ لأن الذاكر من الكمل يشهد أن الحجب القريبة لا تدفع فيذكر من خلفها.

وأما المغلوب بالحال فإنه لا يشهد حجابًا، فيمتنع عن الذكر ويكتفي بالمراقبة والشهود، وأما المتمكن فيجمع بينهما لا يقهره حال، فإذا شاء ذكره وإذا شاء صمت إذ هو مع الله لا مع الأحوال، ومن كان معه لا يقهره شيء من المظاهر إذ كان بحكم الظاهر. وأنشد سيدي محمد البكري - قدس الله سره -:

وطيب في الأكوان ذكره ... ولو أفرغوا كل المدام بباطني

ولم ابتغ سكرا لما فيه سكر ... ولو ابتغي سكرا وقالوا مدامة

رأيت فتى طاشت بسكرته الخمرة ... فمن غلبته الأحوال ذا تلوين

فمن غلبته الأحوال كان ذا تلوين، ومن غلبها كان صاحب تمكين، وأما سر تحفيصهم لها بالمساجد فلقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

=

رأى الحق تعالى في صورة الخيال مقيَّدًا فلم ينكره، لكن لا يسعه إلا السكوت، لأنه حينئذٍ يرى أن لا معلوم إلا الله، وإذا كان لا معلوم إلا الله فلا يدري أحدٌ ما يقول! ولا كيف ينسب الأمور.

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (410/2).

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:18]، وعمارتها بالعبادات والطاعات لا غير ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:114].

قال البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:18]؛ أي: مختصة بالله ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:18]؛ أي: فلا تعبدوا فيها غيره ومن جعل أن مقدرة باللام علة للنهي إلغاء فائدة الفاء.

وقيل: المراد بالمساجد الأرض كلها؛ لأنها جعلت للنبي ﷺ مسجدًا؛ أي: في قوله ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[1].

وفي رواية: «جُعِلَتْ لِيَ كُل الأَرْضُ طَيِّبَةً مَسْجِداً وَطَهُوراً»[2]، وقيل: المسجد الحرام؛ لأنه قبلة المساجد ومواضع السجود على أن المراد النهي عن السجود لغير الله، وأراد به السبعة في السجدات على أنه جمع مسجد؛أي: الأعضاء السبعة المشار إليها بقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمِ الْجَبْهَةِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ - وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»[3] انتهى.

فالجالس فيها مجالس لربه، والمتقارب فيها متقارب مع ربه، وأيضًا فلأن الجالس فيها جالس في رياض الجنة لقوله ﷺ: «رياض الجنة المساجد»[4] وفي رواية: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «الْمَسَاجِدُ»، قُلْتُ: وَمَا الرَّتْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»[5] وينبغي للجالس فيه أن ينوي الاعتكاف مدة الإقامة فيه

---

(1) رواه البخاري (256/2)، والترمذي في «السنن» (56/2)، والنسائي في «السنن» (191/3).

(2) رواه الدارمي في «السنن» (230/4)، وابن الجارود في «المنتقى» (41/1).

(3) رواه مسلم (349/3).

(4) رواه الديلمي في «الفردوس» (305/5).

(5) رواه الترمذي في «السنن» (500/12)، وقال: حسن غريب. قال المنذري (284/2): وهو مع غرابته حسن الإسناد.

لينال ثواب الاعتكاف.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المعتكف يعكف الذنوب، ويجري له من الأجر كأجر عامل الحسنات كلها**»[1] وأيضا فينبغي للجالس فيها؛ أي: في المساجد أن يكون مراقبًا لله تعالى مشاهدًا له، ولهذا كره فيها الكلام المباح، بل ذكر الشعراني - قدس الله سره - أن الجالس فيها يلزمه مراعاة خواطره وأفكاره ووسواسه أدبًا مع صاحب البيت، فلا ينظر فيها لما نهى عنه، ولا يسمع لذلك ولا يخطو لذلك، ولا يجنح في سره لذلك فإن فيه سوء أدب.

وقد حكى عن نفسه أنه كان لا يأتي إليها إلا محل الصلاة ويخرج مسرعًا، فيلزم المقيم فيها للعبادة ألا يشتغل فيها بغيرها؛ ولأن الجالس فيها تصلى عليه الملائكة مادام جالسًا فيها على طهارة كما ورد، وصلاة الملائكة مقبولة وليكن الذاكر في حال الذكر متأدبًا كذلك خصوصًا إذا كان ذاكرًا فيها.

إذ قد ورد في الحديث القدسي: «**أنا جليس من ذكرني**»[2] فليتأدب الذاكر مع جليسه، ويحسن الأدب معه في بيته، ولا يجعل بيت الله وحضرته محلاً لبلوغ شهوته.

فإذا كان الكلام في المسجد مكروهًا من غير ذكر فيه فما بالك مع وجود الذكر، فالذكر حضرة الله كما أن الصلاة حضرة الله، فمن لم يتأدب مع الله في حضرته لا يفلح أبدًا، والجالس في تلك الحضرة إما أن يشتغل، أو يشغل، فإن أشغله إنسان فلينهه عن ذلك، وإن أشغل هو وقع في محذور من شغل مشغولا بالله عن الله حصل له المقت في الوقت هذا إذا كان الكلام من غير ضرورة وأما بها فلا بأس، فليحذر الجالس في ذلك من سوء الأدب[3] فإن ذلك يورث العطب، وأيضا

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (424/3).

(2) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (121/8)، والبيهقي في «الشعب» (242/2).

(3) هو حفظ الحد بين الغلو والجفاء؛ أي: بين الإفراط والتفريط. وذلك أن يؤمّ السالك طريقاً وسطاً بينهما. الأدب مع الحق: أن لا يتعدى حدوده بالتفريط في الخدمة حتى يصير بذلك من أهل المخالفة، واقتراف المعاصي، ولا بالإفراط في الخدمة إلى حد يوجب العجز عن القيام بما افترضه الله تعالى. منها، كما قال ﷺ: «فإن المُنْبتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». وذلك كمن واصل في رمضان فمرض فامتنع عن الصوم المفروض، أو قام الليل كله فعجز =

قليلاً تفوتهم فضيلة صلاة الجماعة في المسجد إذ قد ورد: الصلاة في المسجد الجامع تعدل الفريضة حجة مبرورة، والنافلة كحجة متقبلة، وفضلت الصلاة في المسجد الجامع على ما سواه من المساجد بخمسمائة صلاة، وفي الحديث: «المسجد بيت كل مؤمن»[1] ولقوله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ؛ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ»[2] وفيه إشارة إلى محبتهم لله تعالى حيث أنهم لم يقصدوا إلا بيت ربهم، فإذا رأينا رجلاً يلازم المساجد مع الأدب، والحضور علمنا أنه محب لله تعالى، فوجب علينا حبه لله.

وأيضًا فإن المساجد جعلها الله تعالى في الدنيا دور ضيافته لأضيافه، فإذا جاءت الأضياف إلى ذلك المقام، وما كل قادم يعرف الأدب مع الكرام، فلأجل ذلك يقدمون بين يديهم إمامًا مختارًا عارفًا مقدامًا، فيطلب لهم منه ما يحتاجونه ويترجى لهم منه قبول ما يفعلونه، فعند ذلك تمد لهم موائد الكرم والجود، وتسفر لهم بارقات السعود، إذ الكريم حاشاه من الرد، ومن غائلة الأعراض والصد، ولما كانت الضيافة حقها ثلاثة أيام جعلوا الخلوة كذلك فافهم المرام.

وقد روى سيدي الشيخ محيي الدين - قدس الله سره - في باب الوصايا في «الفتوحات المكية» عن سيدي أبي مدين وكان يقول بعدم تعاطي الأسباب على

= عن فريضة الفجر، وأمثال ذلك.

الأدب مع الخلق: أن تحفظ معهم طريقاً وسطاً بين الغلو في إكرامهم، والتقصير فيه. ذلك بأن لا تكرمهم بما لا يجوز في الشرع، كما أفرطت النصارى في الأدب مع عيسى ؏، فأطروه حتى كفروا بذلك، فقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله» [(16)]. قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فهذا ما يتعلق بالغلو في إكرام الخلق.

وأما الجفاء في حقهم الذي هو التقصير في حقوقهم، فبأن يعاملوا باطّراح ما يستحقونه من التأدب معهم، وتضييع ما يجب لهم من الحقوق، مثل: أن يُهان من يجب إكرامه، أو يسمى بما يبغضه من الأسماء والألقاب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (176/6)، وقال: غريب. وقال الحسيني في «البيان والتعريف» (241/2): فيه صالح المزني وهو ضعيف وله شواهد.

(2) رواه الترمذي في «السنن» (351/11)، وأحمد في «مسنده» (1/25).

طريقة التوكل على الملك الوهاب فاعترض عليه بعض الناس فقال ﷺ: ألستم تعلمون أن الضيف إذا نزل بقوم وجب بالنص عليهم القيام بحقه ثلاثة أيام إذا كان مقيمًا؟! قالوا: نعم قال: فلو إن الضيف في تلك الأيام يأكل من كسبه أليس كان العار يلحق القوم الذين نزل بهم؟! فقالوا: نعم، فقال إن أهل الله رحلوا عن الخلق، ونزلوا بالله أضيافًا عنده فهم في ضيافته ثلاثة أيام ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:47]، فنحن نأخذ ضيافته على قدر أيامه، فإذا كملت لنا ثلاثة أيام من الله من نزلنا عليه، ولا نحترق ولا نأكل من كسبنا عند ذلك يتوجه اللوم وإقامته مثل هذه الحجة علينا.

قال الشيخ: فانظر يا أخي نظر هذا الشيخ، وما أعظم موافقته للسنة، فلقد نور الله قلب هذا الشيخ، انتهى.

وأما سر هذا من حيث الباطن؛ فلأنهم كما طولبوا بعمارة المساجد الظاهرة طولبوا بعمارة المساجد الباطنة وهي القلوب، إذ قد ورد: «قلب المؤمن بيت الله»، وفي رواية: «عرش الله»، فعمروا الظاهرة ثم اجتهدوا وعمروا الباطنة.

ثم لما تم لهم عمارتها نادوا بلسان الحال يقولون للجاهل البطال: لا تظن أنَّا إذا عمرنا قلوبنا بأنوار المعرفة والتوحيد لأجل القيام بنواميس الحقيقة والتفريد تركنا مساجد أقامتها لنا أيدي الشريعة المحمدية المهذبة المرضية، كلا فإن ذلك جهل وإلحاد، وميل عن طريق الرشاد إلى الزندقة والعناد، والنهايات رجوع إلى البدايات، وشيء وصلنا به لا نتركه، والعارف من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، وأيضًا فنحن عالمون بأن كل شريعة بغير حقيقة فهي عاطلة؛ لأن أرض الشريعة إذا لم تظهر عليها شمس الحقيقة لا يصح فيها زرع، فتبقى تلك الأرض عاطلة، وحقيقة بغير شريعة باطلة؛ لأن نور الشمس إذا لم يقابل لجرم أرض الشريفة لا يظهر نورها[1].

---

(1) كان الله للقوم – رضي الله تعالى عنهم – كم أوذوا في الله، انظر كلام هذا الإمام البكري وما يكذبه عليهم المرجفون اليوم، فأين ما أرجف به أعداء الدين من أن القوم يقولون بسقوط التكليف على الفهم الذي تشدق به من يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؛ فيتمسكون – بالباطل بأوهى شبهة بل ولربما يتكلفونها أو يختلقونها من عندياتهم – بكل ما يمكن أن =

قال سيدي الشيخ محيي الدين - قدس الله سره - في كتاب «التراجم اللطيفة»: وقد نجيب لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة: هيهات، بل الشريعة عين الحقيقة؛ فإن الشريعة جسم وروح، فجسمها علم الأحكام، وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع، انتهى.

= يسيء إلى الصديقين - فضلاً عن غيرهم من أهل الإسلام - سواء كان عقيدة أو قولاً أو عملاً، وما كان هكذا - والله - السلف؛ بل كانوا يتورعون لدينهم في اتهامهم المبتدعة - فضلاً عن غيرهم - في العقيدة والعمل والقول، ويلتمسون لهم أحسن الوجوه حتى يدخلوا فيمن امتثل السنة المحمدية المطهرة في الوفاء بحق المسلم؛ فيما رواه ابن ماجه وغيره واللفظ له «سيدنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ: رَأَيْتُ مَوْلَانَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا»، هذه حرمة المسلم فكيف بالأولياء؟! إنا لله وإنا إليه راجعون على التهافت والتلاعب بالحرم الدينية، والغريب أن هؤلاء المرجفين يدعون أنهم أنصار السنة وأنهم سلفية، ويسمون أنفسهم بأسماء من هذا القبيل - تلبيسًا من الشيطان لهم، وتلبيساً منهم على الناس - والسنة منهم برأت، وقد: «مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، كما في الحديث أيضًا. ولم يعلموا بأن هذا الإنكار والتشنيع والتفسيق والتكفير والقدح في المسلمين - ليلًا ونهارًا جملةً وتفصيلاً - يزيد من هذا الشتات والفرقة التي جلبت للأمة ما هي عليه الآن من الهوان والذلة، وكذا يمهد الطريق للتبشر والاستشراق المسيحي واليهودي ويدعمهم أيما دعم، ويسهل لهم الطريق للوصول لعقول أبناء الأمة، ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ فالصوفي عندهم: «عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص، وكل من رمى ميزان الشريعة من يده زمنًا ما فهو مدعي كذّاب ليس هو منهم، ولا له في طريقهم قدم»؛ فكل من هذا وصفه فهو الصوفي حقيقة عند القوم، حتى وإن سُمي بين الناس بغير ذلك، ومن لا فلا؛ فقارن هذا القول مع ما يفتريه أعداء أهل الإحسان على القوم - رضي الله تعالى عنهم - من أنهم على غير نهج السلف، ولكن تلك سنة الله مع خلاصة عباده؛ فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل كما في الحديث، وقارنه أيضًا بما عليه جُلّ صوفية عصرنا من البطالة وعدم النهوض بالشعائر الإيمانية، واعتمادهم على الفضائل؛ وترك ما كان - وسيظل - بحمد الله عليه أهل الله شيوخ الطرق من الاستهلاك وكمال التمسك بالقيام بتعاليم الكتاب والسنة المحمدية المطهرة الكفيلة لمن تمسك بها أن تأخذ بيده لأوج عالم القدس في مستقر رحمة الله ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:69].

وأما سر هذه الخلوة التي يفعلونها وكيفيتها: أنهم آخر ليلة من الخلوة بعد قراءة ورد[1] الوسائل عندما يصلون إلى المنفرجة التي صنفها الإمام العارف الكامل المحقق الغزالي - قدس الله سره - التي مطلعها:

الشدة أودت بالمهج يا رب فعجل بالفرج

يصطفون حلقًا والشيخ يطوف عليهم، وبين يديه النقباء بالشمع، والمنشدون ينشدون المنفرجة، وكلما أنشدوا يتعين منها يذكرون بقية الجماعة: لا إله إلا الله على النعمة الموافقة، وكلما مر على قوم من جماعته أمدهم مددًا باطنيًا، وعطرهم من طيب أنفاسه عطرًا قدسيًا، وربما تبعه البعض رجاء أن يمنحوا مددًا يروي نبات زرعهم، ويدرك ذلك المدد لأصلهم وفرعهم، ففي هذه إشارات كثيرة.

منها: إن الشيخ لما قال: من فيض الخلوة ما نال وسقى فيها من كؤوس

---

(1) قال الشيخ ابن عجيبة: الورد في اللغة هو الشرب قال تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: 98]، وفي الاصطلاح: ما يرتبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات.

والوارد في اللغة هو الطارق والقادم يقال: ورد علينا فلان، أي: قدم، وفي الاصطلاح: ما يتحفه الحق تعالى قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة، وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه ولا يكون إلا بغتة، ولا يدوم على صاحبه.

ثم إن الورد ينقسم على ثلاثة أقسام: ورد العباد والزهاد من المجتهدين، وورد أهل السلوك من السائرين، وورد أهل الوصول من العارفين.

فأما ورد المجتهدين؛ فهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام، وقد ذكر في الإحياء والقوت أوراد النهار وأوراد الليل وعَيَّن لكل وقتٍ وردًا معلومًا.

وأما ورد السائرين؛ فهو الخروج من الشواغل والشواغب وترك العلائق والعوائق وتطهير القلوب من المساوئ والعيوب وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل وعبادتهم ذكر واحد وهو ما يعينه له الشيخ لا يزيد عليه مع جمع القلب وحضوره مع الرب.

وأما ورد الواصلين فهو إسقاط الهوى ومحبة المولى وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف في الحضرة فكل من أقامه مولاه في ورد فليلتزمه ولا يتعدى طوره ولا يستحقر غيره إذ العارف لا يستحقر شيئًا بل يصير مع كل واحد في مقامه، ويقرر كل شيء في محله فلا يستحقر الورد، ويطلب الوارد إلا جهول أو معاند، وكيف يستحقر الورد وبه يكون الورود على الملك المعبود؟

الوصال، وحظي فيها بأوفر الأحوال، وظهرت شمسه لمحي الظلال، قام على الأقدام شاكرًا للكبير المتعال، وطاف على الندمان يسقي كؤوسًا أرق من السحر الحلال، وأشهى إلى القلوب الصوادي من الماء الزلال، فإذا أحس بتلك الكؤوس صبٌّ هام.

وتبع الشيخ يرتجي منه لتسكين لاعج الغرام، فلا يزال تنجذب إليه القلوب إلى أن يعود الطالب مطلوب، والمحب محبوب، ثم بعد معرفته بأن ندمانه أسكروا ينشر ما بقي عنده على الأكوان، فيهيمون بما أفيض عليهم من ثمار العرفان، فعند ذلك تكون قد تمت المنفرجة فيعودون لما هم عليه من الذكر والتوحيد، وقلوبهم قد ملئت لهيبًا ووقيدًا.

وفيها إشارة أخرى وهي: أن الشيخ لما كان محل نظر الحق من الخلوة بحسب اعتقاد مريديه فيه أهلية هذا المقام، وكان مدد مريديه لا يمكن الكلام به، ولا تقضى لهم حاجة إلا على يده إذ هو الواسطة التي بينهم وبين مطلوبهم، فعند ذلك لزمه أن يطوف عليهم، ويريهم ما حظي به من النعوت الإلهية، والأسرار القدسية في حالة الجلوة، إذ الجلوة في اصطلاح القوم: هي خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية، فيزداد فيه اعتقادهم، ويسمو في طريقته اجتهادهم، لكن يحتاج المريد أن يكون فطنًا ذكيًا صاحب كشف ونور، ومشاهدة وحضور؛ ليفهم ما يلقيه عليه الشيخ من الأسرار، ويتحقق في هاتيك المعاني الأفكار.

ثم إن الشيخ لما يطوف على أتباعه ليمدهم بنور شعاعه يحتاج إلى شهود الأحدية، وتحيله في تلك المرتبة السنية ليكون مدده لمريديه من أعلى الإمداد، وجذبه لهم في ذلك المشهد من أسنى الإسعاف والإسعاد، فربما يتيه في ذلك المقام وينشد بلسان الغرام:

أطوف على عشاق كأسي وخمرتي ... فأسكرهم صبي فيصيبوا بسكرتي

وأوردهم عينا يروق مدامها ... وأجذبهم نحو المعالي الرفيعة

وأتحفهم سرًا تدق رموزه ... لقد طال ما خفيته في أجنتي

فلم تلقهم إلا سكارى بما بدا ... سهارى حيارى في الهوى والمحبة

وفي حسن ليالي والجمال تهتكوا ... وقد مزقوا الأستار لما تجلت

ففي هذه تفنى النفوس صبابة ... وفي حبها تبقى وترقى لقربة

فـلا تلتفت إلا إليها فكـذبها   شـفوفا عسى تستقي خمور بيت

تهنـا بهـا إذ كنت تـشهد حـسنها   وعيني بها وأشدو على طيب نعمة

ونـادي لعشاق الجمـال تحملـوا   إليهـا وسيروا بالـصفا والمـروة

ولمـا اختلينـا واجتلينـا لها كـؤوس   قديمـة عهـد محوهـا صار منيتي

كشفنا ستور الـوهم عن نـاظر الحشا   فلاحـت لنا الأسرار من كل وجهة

ففينـا بهـا عنـا وعـن عيننـا بهـا   وعن غيب غيب الغيب في حال دهشة

وفـي خلـوة التحقيـق قلنـا عجائبـا   تـدق عـن الفهـم الـذكي بعزة

وفيها حجحنا أي قصدنا لكفة الجما   ل الـذي عـن تعشه الكـون مكتي

خلفنـا ثيـاب الغيـر عنهـا بهـا لهـا   وطفنـا ببيـت القلـب سبعًا لنكتـة

وقلنـا المنـى لمـا نحرنـا نفوسـنا   وذلـك لمـا أن عرفنـا لـسلمتي

ومـاذا عـسى أيـدي لمـا نلتـه بهـا   وإن قمت فيـه كنـت صاحب بدعـة

وكيف أطبق الكتم من بعد كؤوس   جبـال حنين لـو سقوها لغنـت

ولمـا بهـا تمت ليـالي اجتماعنـا   وحركنـا داعـي الرحيـل لفرقـة

شـطحنا ومـا بحنـا وهمنـا بحبنـا   وغبنـا ومـا عبنـا الـسوى بالتلفت

وتمت علـى الأسـرار منـا دموعنـا   وهمـت ليـالي جمعنـا بالتـشتت

فيـا خلـوة التقريـب هـل أنت بالبقـا   تعـودين لـي يومـا لأحظـى بغيبتي

ويـا خلوة التهـذيب كـم فيك تجتلـى   علوهـا علـى أهـل التعاقـد قـد عـزت

سقى الله أيامـا قـد مضت لي كأنها   شـموس تبـدت ثـم زالـت بـسرعة

وحيى الحب تلك الليالي فقد تبقى الـ   ـمدام علينـا ينجلـي فـي الدجنـة

فكيف إلـى تـدنّ الأويقـات لـم أمـل   وقـد نلـت مـا لـم يعـد يومـا بفكرتي

حمى الله ذاك السرب من كل شائن   حمـى أهـل ودي مـن أقـامـوا بمهجتي

عليهم سلام الله من عبد رقهم ومن في هواهم عاد حيا كميت

ولا زالت الأكوان تخدم فعلهم مد الدهر ما ناح الحمام بروضة

وفيها إشارة أخرى: وهي أن الشيخ لما كان حكيمًا عارفًا بالله، طاف على جماعته ليتفقد أحوالهم، فمن وجده بعيدًا قرّبه، ومن وجده قريبًا حبّبه، ومن وجده محبًّا جذبه، ومن وجده مجذوباً سلبه، ومن وجده مسلوبًا غيّبه، ومن وجده غائبًا أحضره، ومن وجده حاضرًا أشهده، ومن وجده مشاهدًا عرفه، ومن وجده عارفًا حقّقه، ومن وجده متحققًا زاده، فيعطي لكل داء دواءه، ولكل مريض ما فيه شفاؤه، فلا يبقى هناك بعيد إلا وقصده للتقريب، ولا مقرب إلا وتبعه للتحبيب، ولا محب إلا وانعطف عليه للجذب والتهذيب، حتى ترد عليه سائر الطلاب، وتلوذ به جميع الأحباب، ثم يجب عليه أن ينبههم أن قصدهم له لذلك معلولاً، وطلبهم له بذلك مدخولاً؛ ليرجعوا عن ذلك ويتوبوا ويستيقظوا من هذه الغفلة، ويؤوبوا ويقبلوا عليه مخلصين من السوى والإخلاص[1] مطلقين.. مطلقين من الأقفاص والأشخاص فانين دانين عنهم إليه راجين منهم الخلاص مسلوبين مغلوبين عن الأغيار، بمشارب أهل الاختصاص قارعين لأبواب الخواص الغواص، فيحق للقائل أن يصف أهل هذه الشمائل بقوله:

قوم أنيلوا لكشف مزاجهم وحموا من الأنجاس والأدناس

---

(1) يعني به تصفية كل عمل قلبي أو قالبي من كل شوب، بحيث يكون العمل لله وحده.
قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾؛ أي من كل شوب يمازجه من الرياء وطلب التزيين عند الناس لتحصيل الجاه والحرمة، قال ﷺ: «إن لكل حق حقيقة، ولا يبلغ أحد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمده الناس على ما يفعل من خير»، وعند الطائفة أن هذا الإخلاص هو إخلاص العوام.

إخلاص العوام: هو ما عرفته. وقد يقال: بأنه عبارة عن تصفية الأعمال عما يشوبها من الحظوظ المتعلقة بأغراض الدنيا.

إخلاص الخواص: هو إخراج رؤية العمل من العمل، بحيث لا تفتخر في نفسك بالعمل ولا تعتقد أنك تستحق عليه ثواباً لكونك لا ترضي به الله، ولا تراه لائقاً بجنابه العزيز تعالى، بل تراه من عين المنة عليك، والهبة لك، لا لأنه منك، وبهذا الإخلاص يحصل الخلاص من طلب الأعواض، فإن العبد وما يملك لسيده.

إخلاص خاصة الخاصة: هو الخلاص من رؤية الإخلاص، فإن رؤية الإخلاص علّة تحتاج إلى إخلاص منها، وذلك بأن ترى أنه تعالى هو الذي استخلصك فجعلك مخلصاً.

أهل المكانة هم خواص الناس الطالبين حضائر الإيناس

الشاربين بكؤوس قدسية خمرًا يجل عن الجلا في الكاس

وبه لقد حضروا وما غابوا كما غاب السوي عنه مدا الأنفاس

وجاءهم من برّه وحماهم من آفة الوسواس والخناس

فلذا به سلبوا وما حجبوا وقد طربوا بصوت الكاس ثم الطاس

قوم لقد جبلوا على صدق الوفا وسواهم عهد المحبة ناسي

فهم الكرام ولا يضام نزيلهم فلا جلدا يدعون بالأكياس

وأما سر سماعهم من القوالين والأشعار والألحان الطيبة والنغمات المستلذة؛ فلأن فيه تحريك ساكن الغرام، وإضرام نار الهيام، والأصوات الحسان تجذب الأرواح، وتهيج الأشباح وتذكر المحب بمحبوبه، والحزين بكروبه، والبعيد بقربه والغريب بحزبه، لا سيما إذا كانت صادرة عن قلب شجي تقي وحب نجي نقي.

ولهذا قالوا: ينبغي أن يكون منشد القوم الشيخ؛ لأنه أعرف بتحريك قلوب جماعته فإن لم يكن فرجل موصوف بالصلاح؛ لأن ذلك أوقع في قلوب السامعين، وقد شبهوا الصوت الحسن كالمرهم للقلب العليل، فكما أن المرهم يجذب الأذى من الجسد ويصفيه كذلك الصوت الحسن يجذب من القلب التعلقات بالغير وينقّيه خصوصًا إذا كان الإنشاد مما يناسب حال المستمعين؛ لأن لكل مقام مقالاً، فلا ينبغي أن ينشد الشادي عند الصوفية إلا ما هو في المحبة الإلهية، والمعرفة بالله تعالى، وما هو في مدح رسول الله ﷺ ككلام سيدي عمر بن الفارض، وسيدي محيي الدين ابن العربي، وسيدي عبد الرحيم البرعي - قدس الله أسرارهم - فإن في كلام من هو مثل هؤلاء مزيد تأثير، وليجتنب المنشد كلام أصحاب الأهواء التي قصد بها غير الله سبحانه وتعالى.

قال سيدي محيي الدين - قدس الله سره - في «التراجم اللطيفة»: أهل السمع والوجد بالأشعار التي أهلت لغير الله تعالى هم أبعد الخلق عن الله، فإنهم أكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:119]، ولما كان الوجود يستدعي التبين وجاء في الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾

[الأنعام:121] في مقابلة الحق فتفطن، وقال إشارة صاحب السماع عند النغمة لا عند الحق؛ أي: إذا كان واقفًا عندها متلذذًا بها.

وقال فيما لا يعود عليه الحركة عند سماع الألحان المستعذبة، وعدمها عند السماع لا يعول عليه العارفون، ونقل عنه الشيخ أحمد العلواني أنه قال: أحسن السماع في وقتنا - يعني زمانه الذي هو فيه - أن تقفوا للذكر بصوت واحد على موافقة فتسمعوا ذكر الله من أفواههم بآذانكم.

قال الشيخ أحمد: ولا شك في حسن ما قاله إلّا أن المنشد مع الموافقة يزيد في النشاط، وربما لا تحصل الموافقة في الذكر إلّا بقول المنشد.

قال صاحب الرسالة: ولا خلاف في أن الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ وسمعها، ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة، فلا يتغير الحكم بأن تسمع بالألحان الطيبة هذا ظاهر من الآخرة.

قال بعضهم: كان الأنصار يحفرون خندقًا، وكانوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم النبي ﷺ يقول مرتجلاً:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فأكرم الأنصار والمهاجرة

وليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشعر، ولكنه قريب منه، وقد سمع السلف والأكابر الأبيات بالألحان، فمن قال بإباحته من السلف مالك بن أنس، وأهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء.

ثم أطال الشيخ في إباحة السماع المطلق، وهو على قسمين: مفهوم وغير مفهوم، **فالأول**: كالأشعار، **والثاني**: كأصوات الجمادات من المزامير، والشبابة وغيرها من أصوات الطيور المطربة.

وقد اختلفت فيه أقاويل العلماء قديمًا وحديثًا، وصنفوا فيه كتبًا كثيرة، ثم ينبغي للمنشد أن يكون مخلصًا في إنشاده متدبرًا في فهم معاني ما يقوله المقصودة لصاحب الكلام، ولو من بعض الوجوه، فإن بعض المبطلين يستدلون على بعض مقاصدهم القبيحة ببعض كلمات للعارفين، فيخشى على مثل هذا المقت والعياذ بالله.

وقد نقل سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني أن شخصًا من المزاحين أنشد خمرية سيدي عمر بن الفارض بحضرة جماعة يشربون الخمر، فحول الله بوله وغائطه إلى أنفه وفمه، ولم يزل كذلك إلى أن مات، انتهى.

فليحذر المنشد لكلام القوم أن يقصد به غير مقصده، ولما قيل للجنيد: ألا تسمع؟ قال: ممن؟ قيل: من الحق، قال: مع من؟! يشير أن من شروط السماع وجود إخوان صادقين عاشقين ورعين طالبين حتى يحرك بعضهم بعضًا؛ لأنهم قالوا: من علامة صحّته تواجد المتواجد أنه إذا صرخ أو بكى أن يحصل للحاضرين هيبة وخشوع، فإن لم يكن كذلك، فهو كاذب في تواجده.

ثم احذر أيها السامع من إظهار التواجد من أول ما يطرأ عليك، بل دافع ذلك بجهدك إلى أن تغيب به، فعند ذلك إذا وقع منك نداء أو تأوه أو بكاء، فيكون ذلك من غلبة وجد.

وقيل: اجتمع أبو عمرو والجنيد والنصرآبادي والطبقة - رضي الله عنهم - في موضع فقال النصرآبادي: أنا أقول إذا اجتمع القوم فواحد يقول شيئًا، ويسكت الباقون خيرًا من أن يغتابوا هذا، فقال لأبي عمرو: ولأن تغتاب ثلاثين سنة أنجا لك من أن تظهر في السماع ما ليس فيك.

ولقد سمع ذو النون المصري مرة، فقام وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه فلا يسقط على الأرض، ثم قام رجل من القوم بتواجد فقال له ذو النون: اتق الله الذي يراك حين تقوم، فجلس الرجل؛ فرحم الله أهل الإنصاف فاعتبر يا أخي، واعمل عليه تفلح.

ويحكى أن شابًا كان يصاحب الجنيد - قدس الله سره - وكان إذا سمع شيئًا مما يحرك يزعق ويتغير لونه، فقال له الجنيد يومًا: إذا فعلت ذلك مرة أخرى فلا تصحبني، فكان إذا سمع شيئًا يتغير، ويضبط نفسه حتى كان يقطر الدم من تحت كل شعرة منه، فصاح يومًا فخرجت روحه؛ فهذا هو الوجد الصحيح والغرام الذي ميزانه رجيح، وهذا هو الصب الطروب السامع في المحبوب.

فإياك أيها السامع أن تتعمد في استجلاب وجدك بتواجدك، وتكذب في حالك، فتمقت بسبب ذلك، ولا تكن ممن إذا نطحه الشيطان بقرنه صاح وزعق، فإن أهل الكشف ذكروا أن الشيطان يدخل على أهل السماع، ويلقي لبعضهم أمورًا

تحركه، وفيما في بعض الألفاظ يشوقه وينطحه بقرنه، فيصيح ويضطرب ويظن أن تواجده بالله وهو بعدوه.

ولقد نقل سيدي محيي الدين - قدس الله سره - عن شيخه أنه أخبره عن رجل أعمى البصر من الصالحين، حضر مبيتًا في سماع، فقال الأعمى: هذا إبليس قد دخل في صورة مغربي، فرآه يشم واحدًا.. واحدًا، فقال الشيخ: وقعد الأعمى ينعت الجماعة الأول فالأول على التتابع، كما هم عليه من الجلوس، ثم قال: رأى الملعون يمشي عليهم ناظرًا إليهم، حتى قال: قد ثبت عند واحد عليه عقادة حمراء وعمامة، التفتوا إليه فالتفتنا فرأيناه يستجلب الحال، فقال الأعمى: أرى الملعون قد وقف عند هذا الرجل، ثم قال: تراه يريد أن ينطحه بقرنه، فإذا ذاك الرجل قد صاح صيحة، وغلب عليه الحال وقام يشطح، فقام أهل المجلس وهو بهذه المثابة، كذا ذكره في «روح القدس»[1] فلينظر المتواجد في حاله، ولا يتواجد إلا عن وجد

---

(1) «روح القدس في مناصحة النفس» أحد مصنفات وكنوز الإمام ابن العربي قدس سره، طبع عدة مرات من آخرها بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، وهذا الكتاب من خواصه - كما أخبر بذلك من طالعه -: أنه لا يقرأه أحد إلا ويتغير حاله بحيث يجد دواعي العمل بالكتاب والسنة والأخذ بالعزائم وترك الرخص والحرص على التمسك بدقائق السنة ومغمورها فضلا عن مشهورها، ومن يطالع الكتاب المذكور و«الوصايا» آخر أبواب «الفتوحات» ويسيء الظن بالشيخ الإمام العارف الأكبر ابن العربي رضي الله عنا به - قائلا أن في كلامه مخالفة للكتاب والسنة - فلا يمكن للمؤمن - الذي يقيم الشهادة بالقسط لله تعالى - إلا الحكم عليه إلا بأنه واحد من اثنين:

الأول: إما جهول بالكتاب والسنة لا يعلم عما أتت به الشريعة من الأوامر والنواهي شيئًا، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾[يونس آية: 39]، وجلّ من تراهم اليوم من المنكرين على الإمام من هذا القبيل؛ فترى الواحد منهم ينكر من كلام الإمام ما هو أصل من الأصول التي دعت إليه الكتاب والسنة وأمر من أوامر الله تعالى ورسوله الأمين ﷺ، ولكنه مع جهله لا يعرف الأصل الذي استند إليه الإمام من الكتاب والسنة، فينصب إنكاره على عين ما أمر به سيدنا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مع جهله يظن أنه ناصر السنة والتوحيد وهو في الحقيقة العدو الأكبر للسنة وأهلها. نعوذ بالله تعالى من المكر والخسران.

الثاني: يعلم جلالة الشيخ الأكبر وجلالة كلامه وما له من صولة الحق التي أذعن وخضع لها جبابرة العقول والحكمة بحيث كانت مصنفاته - التي هي الشرح الكامل للكتاب والسنة -

صحيح، وحال عن وجوه الكمال للعقائد مزيج.

قال سيدي محيي الدين: السماع إذا لم يوجد في الإيقاع وفي غير الإيقاع لا يعوّل عليه، والحركة عن سماع الألحان المستعذبة، وعدمها عند عدم السماع لا يعوّل عليها العازفون، انتهى.

وقال في «فتوحاته»: اعلم أن التواجد استدعاء الوجد؛ لأنه تعمد في تحصيل الوجد فإن ظهر على صاحبه بصورة الواجد، فهو كاذب مرائي منافق لا حظ له في الطريق؛ ولهذا لم تسلمه الطائفة إلا لمن أعلم الجماعة التي يكون فيها أنه متواجد لا صاحب وجد، ولا يسلم له بذلك إلا إذا اتفق أن يعطي الحال لقرينه أن يوافق أهل الوجد في حركاتهم عن إشارة من شيخ يكون له حكم في الجماعة أو حرمة عندهم، فإن خرج عن هذه الشروط فلا يجوز له أن يقوم متواجدًا، ولا أن يظهر عليه من ذلك أثر، وكل وجد يكون عن تواجد، فليس بوجد فإن من حقيقة الوجد أن يأتي على القلب بفتنة فيفجأه، وهو الهجوم على الحقيقة وأطال في ذلك، انتهى.

فشرط السماع أن يكون من الحق، فمن سمع منه فهو السامع وإلّا فلا.

ولقد قلت في ذلك بعون الله القدير المالك:

سماعي من الأكوان يحرم أن يكن ... أشاهدكم يا نور عيني ومقلتي

ولي في استماعي منكم لذة بها ... أهيم على كل الأغاني الوخيمة

سببًا كبيرًا وفعّالاً في دخول الناس في دين الله أفواجًا قديمًا وحديثًا وخصوصًا في الغرب، وهذا المنكر مع هذه المعرفة لم يمنعه من قول الحق في الإمام ابن العربي إلا كونه واحدًا ممن قال جل شأنه فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء آية: 54] فلم يمنعه من قول الحق إلا أنه أراد الباطل حسدًا للإمام ابن العربي وحقدًا على مكانته ومكانة مصنفاته وعلومه في قلوب المسلمين، ومن هؤلاء عدو أهل البيت – رضي الله تعالى عنهم – ابن تيمية عليه من الله ما يستحق. انظر كتاب: «**النور الأبهر في الدفاع عن الشيخ الأكبر**» لمجموعة من العلماء [ط. الدار الجودية بمصر]، وكتاب «**الشيخ محيي الدين ابن العربي إمام العارفين**» للعلامة الصالح محمد رياض المالح [ط. المجمع الثقافي بـ: أبوظبي] هو من أوسع وأفضل الكتب التي ترجمت للإمام رضي الله تعالى عنه، وكتاب «**كشف ما يرد على الفصوص، أو عن الحياة، ويليه رسالة الفيروزآبادي في الدفاع عن الشيخ الأكبر**» للشيخ محمد المكي [ط. دار الكتب العلمية بتحقيقنا].

فهل الحق إلا بكم عن جمالكم؟! وهل سامع إلا بكم يا أحبتي؟!

ومن سمع الشادي يقول فإنه جهول بأسرار العلوم الدقيقة

ومنذ حبيب القلب غنّى أبحته فؤادي وعقلي ثم لبي وجملتي

وقد طربت منه جميع جوانحي وكاساته دارت فهاجت صبابتي

وهامت به روحي وطابت بطيبه وقد هتكت ستر الحياء بنغمتي

فزد أيها الحادي ورنّح بذكره وصرح ولا تكني بليلى وسلمة

وكرر على سماعي ذكر الألى نأوا وقد أضرموا نار اشتياقي وحرقتي

وعرض بذكري إن مررت بحيهم وحيهم مني بألف تحية

وإنما جعلوها ثلاثة أيام، ولم تكن أقل أو أكثر تكون وترًا، إذ قد ورد في الحديث: «إِنَّ اللّـهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ»[1]؛ ولأن **التوحيد ثلاثة**: توحيد أفعال، وتوحيد أسماء وصفات، وتوحيد ذات، وأيضًا فلأن **منازل السائرين ثلاثة: الأول**: منزل عالم الفناء، **والثاني**: منزل عالم الجذبة، **والثالث**: منزل عالم القبضة؛ ولأن المفاهيم **ثلاثة**: مفهوم عوام، ومفهوم خواص، ومفهوم خواص الخواص.

واليقين له ثلاثة مراتب: أولها: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، **فالأول**: هو عبارة عما يعطيه الدليل، **والثاني**: هو عبارة عما تعطيه المشاهدة والكشف، **والثالث**: وهو ما حصل من العلم بما أريد له ذلك الشهود.

والطريق مبني على ثلاثة أشياء: وهي التعلق، والتحقق، والتخلق، **وله ثلاثة درجات: فأول درجاته**: الجنون، **وأوسطها**: فنون، **وآخرها**: سكون.

وأولها: عناء، **وأوسطها**: فناء، **وآخرها**: غناء، **وأولها**: تهديد، **وأوسطها**: تجريد، **وآخرها**: تغريد، **وأولها**: جفاء، **وأوسطها**: صفاء، **وآخرها** حقًا، **وأولها**: إيمان، **وأوسطها**: عرفان، **وآخرها**: كتمان.

والمراتب ثلاثة: إسلام وإيمان وإحسان، **والأسفار ثلاثة**: سفر من عنده،

---

(1) رواه الترمذي في «السنن» (290/2)، وابن ماجه في «السنن» (69/4).

وسفر إليه، وسفر فيه، هذا على مذهب سيدي محيي الدين - قدس الله سره - وأما غيره، فجعلهم سبعة وأصول الأسماء ثلاثة، وأوصلها بعضهم لسبعة وبعضهم إلى الاثني عشر، وبعضهم إلى ما هو أكثر من ذلك، وربما ظن بعض الأشخاص أن الأسماء الاثني عشر لم يتممهم إلا نبينا ﷺ فيقال له: إن نبينا ﷺ وبقية الأنبياء - عليهم الصلاة السلام - لم يسلكوا بأسماء وأوراد، وإنما كان فتوحهم وهبي لا كسبي على طريقة الفيض الإلهي من غير جدّ في ذلك ولا اجتهاد، وإن وقع منهم ذلك، فهو للتعليم والإرشاد، بل ولا ثبت عنه إلا تلقين الاسم الأول لخواص أصحابه لأنه ﷺ كان إرشاده بالهمّة والنظر، وعلى هذه الطريقة كان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي وأصحابه - قدس الله أسرارهم -.

ولما أثنى الشيخ على تلميذه أبي العباس المرسي - قدس الله سرهما - قال: إن أبا العباس لو جاءه راع والبول على ساقيه، لقال له: ها أنت وربك.

والأسماء والأوراد إنما كثرت لضعف الطالبين والأساتذة عن مثل هذا الإرشاد وقبوله.

وقد أثنى بعض إخوان شيخ شيخنا عليه بحضرة شيخه، ومحضر من إخوانه، وكان ذلك المثني صاحب سجادة، وهذا من جملة خلفاء سيدي علي قره باش[1] - قدس الله سره - اسمه مصطفى أفندي، ويعرف بيشبك طاش، وكان له باع طويل في تحقيق رموز القوم، وله ذوق عال في ذلك، وأخبرني عنه شيخنا أنه كان إذا تكلم في الحقائق يموج كما يموج البحر فيقذف بفرائد عقود البحر، قال الشيخ: إن الشيخ عبد اللطيف ممن أعطى الإرشاد و[النظر]؛ لما رآه من قوة حاله، وسرعة الفتوح لمريديه.

وأيضا فإنه ﷺ لقن النفي والإثبات لبعض أصحابه ثلاثًا ثلاثًا، ولهذا

---

(1) هو علي الأطول بن محمد القسطموني، الرومي، الخلوتي، الشعباني، الشهير بقره باش. صوفي مفسر، متكلم، توفي بين مكة والمدينة بعد أداء الحج سنة 1097هـ.
من تصانيفه: «أساس الدين»، «تفسير سورة طه»، «جامع أسرار الفصوص» توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وهو صغير الحجم. «رسالة في جواز دوران الصوفية»، و«شرح العقائد النسفية».

[المستحب] التهليل عقب الصلوات ثلاث مرات؛ ولأن الأيام البيض من الشهر ثلاثًا: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، والأشهر المحرم المجتمعة ثلاثة وحروف الجلالة المجتمعة ثلاثة، والحرف المنفرد كالنفس المنفردة.

وأما سر خلوتهم أيام الحسوم؛ فلأنها أيام غضب، وهي الأيام التي غضب الله بها على قوم عاد، فكأنهم يرجون من الله تعالى لهذه العبادة في هذه الأيام أن تكون عليهم، وعلى إخوانهم من المؤمنين أيام رحمة، ولما كان في هذه الأيام تفتح الأزهار، وتخضر الأشجار فكأنهم يشيرون بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال، ويقولون للسائل عن السبب الذي ما بلغ في سر ذلك أرب: أنت يا أيها السائل الفاني، ويا من في بلوغ المعاني يعاني كما أن الأزهار تتفتح في هذه الأيام، فكذلك في خلوتنا هذه تتفتح في قلوبنا أزهار المعارف، وتخضر لنا أشجار اللطائف، وتضرب لنا في تلك الفيافي خيام.

ولما كان في هذه الأيام بعض مماثلة لما نحن فيه مما قد أبديناه، ولكثير ما نخفيه حظينا الخلوة في هذه الأيام المعلومة، فعسى الطالب أن يتنبه لما أودعنا في طيها من العقود المنظومة.

قال القاضي: وإنما سميت: «أيام الحسوم» جمع: «حاسم» من حسمت الدابة إذا تابعت بين ركبها أو نحسات حسمت كل خير واستأصلته، أو قاطعات قطعت دابرهم، ويجوز أن يكون مصدرًا منتصبًا على العلة بمعنى قطف، أو المصدر لفعله المقدر حالاً؛ أي: تحسبهم حسومًا، ويؤيده القراءة بالفتح، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الأخرى.

وإنما سميت عجوز؛ لأنها أعجز الشتاء أو لأن عجوزًا من عاد توارت في سرب[1]، فانتزعتها الريح في الثامن فأهلكتها، انتهى.

وأيضًا قد أشاروا بخلوتهم في هذه الأيام إلى أنهم قد قطعوا عن قلوبهم جميع ما يشغلهم، ويبعدهم عن حضرات القرب من المطلوب المرغوب، والحبيب

---

(1) سرب في الأرض سروبًا: مضى فيها، وهو يسرب النهار كله في حوائجه، وسرب الماء: جرى على وجه الأرض، وهذا مسرب الماء، وسرب النعم: توجه للرعي، ومال سارب، ومن ذلك قيل للطريق: السرب؛ لأنه يسرب فيه.

المحبوب، ومن فعل ذلك حق له أن تنفجر أنهاره، وتزهر أشجاره، وتغني أطياره، وتطيب ثماره، وتبدو أقماره، وتنضح أسراره، وتستنير أفكاره، وتتزايد أنواره، ومن قطع العلائق والطوائق كان للحضرات الإلهية لائق، ولا يدرك ذلك إلا الذائق من خمر الرائق والفائق، وعند السر الفائق أيضًا، فإن هذه الأيام - وهي أواخر الشتاء - فيدخلون الخلوة ويطلبون من الحق سبحانه أن يغيث المحتاجين من خزائن الجود والكرم إذ هو بالحكمة أعلم.

ومرادهم أيضًا أن يستمطروا من سحاب المدد الإلهي بما جاءوا به من الذل والانكسار، وإظهار الاحتياج والاضطرار؛ لتسقى أراضي نفوسهم من مزن سماوات أرواحهم، وتلوح بروق قبولهم حين اشتداد رعد خوفهم، فيتنعمون بذلك بعد انمحاق الحوالك والإشراق على هاتيك الممالك، والتحقق بأن كل شيء هالك، واعلم أن أوائل الشتاء هي مثل أوائل السلوك، وأواخره مثل أواخر فتيان يكون الشتاء كثير الأمطار في أوائله وتارة في أواخره وتارة يكون قد شح فيهما، فكذلك السالك تارة يكون اجتهاده في مبدأ سلوكه، وتارة في أواخره، وتارة يكون مقصراً فيهما، وإنما سمينا لسلوكه آخرًا مع أنه ربما لم يبلغ مبادئ أصحاب الهمم فيه بحسب ذوقه وما عنده في ذلك، ومن المعلوم أن من لم تكن مجاهداته أيام سلوكه وافرة لم تكن له الحقائق على الكمال سافرة، ولذا قيل: من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، ومن تحمل فتحه قبل رياضته، وهي ترك الرعونات وتحمل الأذى لم يجئ منه رجل إلا في النادر، وذكره سيدي محيي الدين ﷺ فاعمل على المجاهدة لكي تصفو لك المشاهدة.

قال سيدي محمد البكري - قدس الله سره -:

فـتفهَّم تعلـم وجاهـد تـشاهد   يـا مريـدي مـن مزيـد تعطـى

فالمجاهدة طريق موصل إلى المشاهدة، ومن لم يركب سفينة المجاهدة لا يلج بحر المشاهدة، ومن لم يبذر حبّ المجاهدة في أراضي قلبه لا يصل إلى مشاهدة حضرات ربه، فبغيرها لا يحصل الصقال فدع القيل والقال، وما أحسن قول من قال:

متـى مـا شئت تطلبنـا دلـيلا   بغيـر طريقهـا وقـع الـضلال

ومراقب البصيرة كيف يبدو بها شيء وما حصل الفعال

ثم ينبغي للمريد أنه إذا لم يكن له نصيب في الاجتهاد حال الابتداء، فلا يتكاسل فيه قبل الانتهاء.

وينظر في قول القائل:

لا تقل قد ذهبت أيامه كل من سار على الدرب وصل

وأما سر وقودهم القناديل والشمع في حالة الذكر مع أن من جملة آداب الذكر أن يكون في عتمة؛ فلأنهم في المسجد والمسجد يستحب تنويره بمثل ذلك.

وقد كان معاذ بن جبل ﷺ يقول: من علق قنديلاً مسرجًا في مسجد صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يطفئ ذلك القنديل، ومن بسط فيه حصير صلى عليه سبعون ألف ملك حتى ينقطع ذلك الحصير، ويقول: سمعت ذلك من رسول الله ﷺ.

وكان علي ﷺ إذا مر على المساجد في رمضان، وفيها القناديل مسرجة يقول: نوَّر الله على عمر في قبره كما نور علينا مساجدنا، ولما أمر عمر ﷺ بتجديد مسجد رسول الله ﷺ، وكان سقفه من جريد النخل قال للقيّم على العمارة: كنّ الناس من الشمس والمطر، وإياك أن تحمِّر أو تصفِّر فتفتن الناس، فإذا فرغت من العمارة، فاجعل فيها القناديل ذكر.

وأما من طريق الإشارة فإنهم لما طولبوا بتكوين المساجد الظاهرة، طولبوا بتنوير المساجد الباطنة، وتنويرها إنما يكون بالذكر والفكر والتوحيد الخالي عن الشرك الخفي، ثم لما تم لهم التنوير نادوا هنا مثل ما نادوا في التعمير.

ولما كانت القناديل والشمع من جملة الأنوار، وأهل الخلوات لمّا تصفوا من مقتضيات البشرية والتطورات المطبعية والعادية عادوا متروحنين روحانيين، فرأوا أنهم قبل ذلك كانوا في ظلمة، فأوقدوا تلك الأضواء يشيرون بذلك إلى أنهم قد خرجوا من تلك الظلمة إلى النور، وقد قال تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:257]، والنفس أيضًا ظلمة والروح نور، فيشيرون إلى أننا قد خرجنا من ظلمة النفس إلى نور الروح، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الذنوب

إلى نور الطاعات، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة نسيان الذكر إلى نور ذكر الذكر، ومن ظلمة شهود الأكوان إلى نور العرفان، ومن ظلمة العدم إلى نور الوجود، ومن ظلمة شهود الوجود إلى نور الفناء عنه، ومن ظلمة الفناء عن الفناء عنه إلى نور المشاهدة والبقاء[1].

فمن كان نوره الحق وحُبِي بنور العلم، واستغرق في مشاهدة النور القديم ذاهلاً عن النور الحادث، فهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:122]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، إذ هو نور النور.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:35]؛ أي: منورهما بنوره، والنور الذي يمشي به في الناس هو من نوره، إذ ليس في العالم نور إلا وهو مفاض عليه من نوره، ولولا مدد نوره ما تنور، فمن شهد النور منور بنفسه فقد حجب، ومن شهده منورًا بنوره فقد قرب.

واعلم أيها الراجي لكشف الستائر عن وجوه الأشاير، إذ لكل شيء إشارة ورمز، ومن ذلك الألف والهمزة، فللمصباح إشارة وللقنديل إشارة، وللنور إشارة وللنار إشارة، وللشمس إشارة، وللبرق إشارة وللثريا إشارة، وللنجم إشارة وللقمر إشارة، بل لكل منهم إشارات وليس يدرك تلك الإشارات إلا من كشف له القناع، وعرف سر الأوتار والأشفاع، فسر سير الأبطال ولا تعرج عن البطال، واحذر فإن الطريق كثير الآفات، وجد عسى أن تتدارك ما فات، فافهم المراد وما مضى لا يعاد.

وأما سر نومه تلك الساعة بعد صلاة الإشراق فليأخذ الجسد والعين بعض

---

(1) يطلق ويراد به: رؤية العبد قيام الله في كل شيء. فالبقاء أحد المقامات العشرة التي يشتمل عليها قسم النهايات لأهل السلوك في منازل السير إلى الحق تعالى، وهو مقام أرباب التمكين في التلوين. وعند حصول هذا التمكين لم يبق عليه الاسم ولا العبارة ولا الإشارة ليؤذن ذلك بتميز وإضافة فيبقى من لم يزل ويفنى من لم يكن، ولهذا كان مقام البقاء بعد الحالة المسماة بالفناء. والبقاء مرتبة من يسمع بالحق، ويبصر به، المشار إلى هذه المرتبة بقوله: «بي يسمع وبي يبصر» الخ.

حقهما لقوله ﷺ لابن عمر: «**إن لجسمك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا**»[1] وليطلع النائم في هذه الساعة على بعض ما منَّ الله تعالى عليه في هذا اليوم والليلة من الترقيات الباطنية، والمقامات العيانية.

فإن المنامات تنبئ عن أحوال السائرين إلى الله تعالى إذ جميع ما يراه المؤمن في منامه على اختلاف درجات النائمين هو وحي من الله تعالى على لسان ملك الإلهام[2].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول بعد انصرافه من صلاة الصبح: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ**»[3]، لكونه يحب أن يرى أثر الوحي الإلهي في أمته.

وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ من ستة وأربعين جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[4] وفي رواية: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[5] وفي رواية: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الشَّيْءَ يَكْرَهُهُ؛ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِذَا اسْتَيْقَظَ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»[6]، وتفاصيل الرؤيا ومنشأها.

وما سرّ قصر ذلك على الشيخ؟ ومن أين لهم التمسك بها مع أن الغالب فيها حديث النفس والأحلام وهي تختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأشخاص؟! ومتى يكون الرأي الذي رأى رسول الله ﷺ قد رآه حقيقة؟ وما الحكم فيها إذا أمره بأمر فتحتاج هذه الأمور إلى مزيد بسط أليس هذا محله هنا؟!.

واعلم أن نوم المتعبدين بنية الاستعانة على التقوى من جملة الطاعات والأوراد، ولهذا كان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول إذا نام: لا توقظوني من

---

(1) رواه البخاري (1995/5).

(2) يعنون به العلم الرباني الوارد على القلب منصبغًا بحكم الحال الغالب والحاكم عليه حالتئذ، وهو سابع منزلة من منازل قسم الأودية، ويطلقون الإلهام على الخاطر الملكي.

(3) رواه مسلم (162/15)، والدارمي في «السنن» (172/2).

(4) رواه البخاري (2563/6).

(5) رواه مسلم (143/15)، وابن ماجه في «السنن» (18/12).

(6) رواه البخاري (441/11)، ومالك في «الموطأ» (468/5).

وردي، على الخصوص إذا كان النائم صائما لقوله ﷺ: «**نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور**»[1] ومنامات السائرين هي معاريجهم إلى الحق سبحانه وتعالى؛ لأن معاريجهم بالأرواح لا بالأشباح، بخلاف معاريج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإنها بهما، وما لم يدرك المريد حقيقة مقام الفناء فإن معاريجه في عالم المثال، فإذا أدرك ذلك فإن له مشهداً آخر يعرفه من ذاقه.

وقد نقل الشيخ العارف أيوب الصالحي - قدس الله سره - في بعض كتبه: إن للقوم في كل حركة برهاناً، وفي كل نومة معراجاً، وفي كل سكون وجوداً.

فقوله: «في كل حركة برهان» أي: دليل؛ لأن طريقهم كما قال الجنيد: مؤيد بالكتاب والسنة، فمن أحدث فيه ما ليس فيهما، فذلك مردود عليه، فلا بُدّ لهم في جميع ما يستندون إليه من الصلوات والأوراد والأذكار من دليل، وقوله: «في كل نومة معراج» أي: ارتقاء من مقام إلى آخر، ومن تجليات إلى غيرها إذ التجليات الإلهية ليس فيها تكرار؛ لأن الله تعالى لا يتجلى على عبد في تجلي واحد مرتين أبدًا، وإذا كان كذلك فيكون لهم في كل لحظة معراج؛ لأنه في كل يوم وليلة يرد على القلب سبعون ألف وارد، فلهم في كل وارد معراج من الوارد الأول إلى الثاني، فيكون هذا المعراج جامع المعاريج، وقد يكون مقصوده بالمعراج: الارتقاء إلى الحضرة الإلهية، فيكون المعراج واحد، والإفاضات الإلهية كثيرة.

وفي «الغوثية»: سألت الرب تعالى عن المعراج قال: «يا غوث الأعظم المعراج: هو العروج عن كل شيء، وكمال المعراج ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:17]، يا غوث الأعظم لا صلاة لمن لا معراج له عندي، يا غوث الأعظم المحروم عن الصلاة: هو المحروم عن المعراج عندي». انتهى.

وقوله: «وفي كل سكون وجود» والوجود: هو وجدان الحق بأسمائه وصفاته، ويطلق على مطالعة الجلال حال انعدام شهود الغيرية، وقد بسط الإمام الجيلي وسيدي محيي الدين عباراتهما فيه، وهو لا يكون على الكمال إلا بعد السكون، وقد

---

(1) رواه البيهقي في «الشعب» (462/8)، والديلمي في «الفردوس» (247/4).

أنشد في معناه سيدي محيي الدين الأكبر في «فتوحاته» قوله:

فـإني بـالوجود فنيـت عنـه ... وجـود الوجـد عـين وجـود وجـدي

ولا يـدري لعـين الوجـد كنـه ... وحكـم الوجـد أفنـى الكـل عنـي

بحـال أو بـلا حـال فمنـه ... ووجـدان الوجـود بكـل وجـه

وعبارة الشيخ أيوب تحتاج إلى ما هو أبسط من هذا، ولكن ليس هذا محل بسط ذلك، وإنما أوردنا ما ذكرنا ليتضح بعض أشكالها.

واعلم أن السائرين إلى الله على قسمين: قسم يدركون ما يفيضه الحق سبحانه وتعالى عليهم يقظة ويتنعمون في ذلك جهرة، وأهل هذا القسم قد نقل لهم عالم الخيال إلى عالم الحس إكرامًا من الحق تعالى لهم واعتناء بهم، وقسم لا يدركون ذلك إلا في حالة النوم، فإذا شاهدوا ما منَّ الله تعالى عليهم ازدادت هممهم، وانزاحت ظلمهم.

ولهذا قال بعض العارفين: إن الوقائع التي تقع للإنسان في المنام تقوي إيمانه بالغيب هذا لمن لم يكمل.

أما الكاملون فهم على بصيرة ويقين، وهؤلاء هم الذين لو كشف لهم الغطاء لم يزدادوا يقينًا على ما عندهم إذ الكامل أكمل حالاً في يقظته من منامه، ولما كانت الإشارات تختلف باختلاف المراتب كان للناسك في نومه إشارة، وللسالك إشارة، وللمحب إشارة، وللمجذوب إشارة، فالناسك يشير في حال نومه إنني واقع على الأبواب ومنطرح في الأعتاب ليس في سكون ولا حركة ولا إرادة ولا اختيار، بل يقول بلسان حاله إنني ميت ملقًا بين يد القدرة، فإن قضت برجوعي رجعت، وإن قضت بعدمي عدمت، وقد سلمت نفسي لمالكها ليفعل فيها ما يحب ويختار فهذا إشارة الناسك؛ أي: العابد.

وأما السالك في طريق المقربين فيشير بنومه إلى خمود آثار نار بشريته عند التعاطي لما يمنعه من الارتقاء إلى المنزل الأعلى الذي هو عدم شهود الخلق موجودين والغيبة عنهم بالكلية، بل هو منتقل من عالم الملك إلى عالم المثال سائر سالك في حدائق هاتيك الظلال، فيسلك من حال اليقظة بالأكوان إلى حال الغفلة عنهم رجاء نيل الإحسان.

وأما نوم المحب ففيه إشارة إلى الانخلاع عن جميع التعلقات التي تحول بينه وبين محبوبه، فلا يسمع إلا به ولا يبصر إلا به ولا يتكلم إلا به، ولا يسكن إلا به ولا يتحرك إلا به، إذ هو غائب مدهوش، فإن في شهود محبوبه عن شهود ما سواه فيشير في نومه أنه لم يبق له التفات ولا تطلع إلى غير ما هو متوجه إليه ومقبل عليه، بل هو قد ذاب وانمحى، ولم يبق له مشهود إلا المحبوب المقصود.

وأما إشارة نوم المجذوب فيشير أنه لما جذب إلى مروج المقام الأقدس، وحنّت روحه إلى الإشراف على المنزل الأنفس، وكشف له عن مقام السحق والمحق، فالسحق والمحق عن الأوصاف المحدثة، وثبت له شهود الأوصاف القديمة، فلم يكن يشهد في ذلك المقام إلا القديم الدائم على الدوام، ولكل صبٍّ مقام إشارة في منامه على مقدار مقامه.

واعلم أن الغالب في عالم الخيال الصفة الروحانية، وفي عالم الملك الصفة الجسمانية ضعيفة؛ لبقاء حكم البشرية فيها فلو زال حكمها، وانسلخ منها صاحبها لسمع خطاب الحق من غير حجاب كما وقع لنبينا محمد ﷺ ليلة المعراج إلا أنه ﷺ قد حصل له مع التكليم المشاهدة والمعاينة، ولم يكن هذا المقام على الكمال لغيره قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى:51]، فمن زالت بشريته كلّمه ربه من غير حجاب، وما سمي البشر بشرًا إلا لمباشرته الأمور المانعة له عن اللحوق بدرجة الروح، وأما السيد موسى عليه السلام لما لم يكن له من الانسلاخ مثل ما كان لنبينا ﷺ كلّم من وراء حجاب فسئل النظر، ثم إنه لمّا رجع تبرقع لما كسي به من الأنوار الإلهية، وكان ظهور تلك الأنوار عليه من التلوين، وعدم ظهورها على نبينا من التمكين، فكان التكليم لسيدنا موسى عليه السلام في سد الحال، والتكليم والقرب لنبينا ﷺ في مقام الكمال.

وقد ذكر سيدي محيي الدين: إن لعدم النوم فائدة وحالاً ومقاماً، ففائدته: دوام عمل القلب وارتقاء للمنازل العلية المخزونة عند الله تعالى، وحاله: عدم تضييع الوقت على المحقق، والسالك؛ لكن المحقق له في ذلك مزيد ذوق وتخلق لا يدركه السالك، ومقامه القيومية، وأنكر على من أنكر التعلق والتخلق فيها، وقد قال في «الفتوحات المكية» في الباب التاسع والتسعين: فمن نام بنفسه فهو ميت،

ومن نام بربه فهو نائم نومة العروس، والحق يئوب، وأنشد في هذا المعنى:

يـا نائمـا كـم ذا الرقـا د وأنـت تـدعي فانتبـه
كـان الإلـه يقـوم عنـك بمـا دعـا لـو نمـت بـه
لكـن قلبـك غافـل عمـا دعـاك ومنتبـه
فـي عـالم الكـون الـذي يرديـك مهمـا مـت بـه
فـانظر لنفسك قبـل سـير ك إن زادك مـشتبه

وقال أيضًا في الباب التاسع والخمسين والخمسمائة: مادام الروح في الجسد فهو ميت في قبره رقد؛ فمنهم من نومه نومة العروس، ومنهم من نومه نومة المحبوس، ولكل واحد مُقيَّد، مع أن أحدهما مخذول والآخر مُؤيَّد، فإذا حي به في موته إلى جسده، وبعثر ما في قبره عاد إلى أصله ووصل إلى ما كان من فضله، انتهى.

ولقد قلت في ذلك ليتنبه السالك إلى هاتيك الممالك:

أيهـا النـائم كـم هـذا الرقـاد قـم إلـى الرشـد ودع عنـك الفساد
وانتبـه مـن مـسبق زادك يـا غـافلا واقصد إلـى حـي سعاد
علـى أن مرقـى إلـى النـوم بـه وتنبـه مـن دونهـا خـرط القتـاد
فـلأن نلـت وصـالا ولقـاء لـم تـذق مـن بعـد ذا طعـم الرقـاد
بـل تكـن فيـه لـه منتبهـا نـائم العينـين سـهران الفـؤاد
فلهـذا سـر وكـن مجتهـدا تـدرك الـسر فتحظـى بـالمراد

وأنشد الشيخ أحمد العلواني [1] في تائيته:

---

(1) هو أحمد بن عمر الحمامي العلواني الخلوتي: متصوف، من فضلاء الشافعية، من أهل حماة، تعلم بها وتصوف على يد شيخ يدعى ابن علوان، فنسب إليه، ثم انتقل إلى حلب وكان يتكسب بالحياكة، وأقبل على إقراء المبتدئين «ألفية ابن مالك» في النحو وشرح القطر، وتوفي بحلب سنة 1017هـ.
له كتب، منها «أعذب المشارب في السلوك والمناقب»، و«مناقب الشيخ أبي بكر بن أبي الوفاء». [الأعلام للزركلي (1/ 188)].

ونوم الفتى حق إذا رام رؤية لمولاه في نوم فيا خير نومة

ومن نام عن فعل وترك رأينا يكون له سمعا ونور المقلة

فما فرض الموت عليك سوى بأن تراه بعين الجمع في نقل فرقة

فهذا منام العارفين فنم كهم إذا رمت أن تلقى الحبيب بيقظة

فإن كنت لم تفهم كلامي فسل به خبيرًا رأى عينًا بعين جديدةِ

فهذا منام الكاملين العارفين الذين تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وذلك لهم بطريق الإرث المحمدي.

وقد حكى الصالح محمد الصفار - مجاور الحرمين - أنه كان مرة بين يدي سيدي أبي الحسن البكري بين المغرب والعشاء فغلب الأستاذ النوم حتى غط قال: فوقع في نفسي كيف ينام الأستاذ قبل العشاء وهو مكروه؟ فو الله ما خطر لي ذلك إلا وفتح عينيه قائلاً: «كان ﷺ تنام عيناه، ولا ينام قلبه» فاقشعر جلدي وخجلت، انتهى.

وقد أنشد سيدي محيي الدين - قدس الله سره - مشيرًا لذلك:

فمن أتاه الحبيب كشفا لم يدر ما لذة الرقاد

مثل رسول الإله إذ لم يكن له النوم في الفؤاد

ودليل ذلك أنه كان لا ينتقض وضوءه بالنوم ولم يحتلم قط، وكذلك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

وأما نوم المريدين السالكين فليس هذا في مقامهم، بل هو ما قدمناه، وينبغي للمريد ألا ينام إلا على طهارة ظاهرة وباطنة من حقد وحسد، وعجب وكبر، ومحبة للدنيا وغير ذلك، مما ورد النهي عنه فقد يموت صاحب هذه الأوصاف في هذه الرقدة، فيحشر على ما مات عليه، ولا ينام إلا عن غلبة.

وقد مدح الله السُّهَّاد في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:16]،

ويحكى أن مريدين اختصما عند شيخ لهما، فقال أحدهما: النوم عن الشر خير من اليقظة، وقال الآخر: بل اليقظة لاكتساب الخير خير من النوم، فقال الشيخ

لمن رجح النوم: الموت خير لك، ولمن رجح اليقظة: الحياة خير لك.

واعلم أن للنوم سنناً وآداباً كثيرة منها: أن ينام على شقه الأيمن، وأن يكون مستقبل القبلة، وألا ينام إلا على ذكر، وأن يكون على طهارة، وأن يستاك إذا استيقظ؛ لأن النبي ﷺ كان إذا استيقظ يشوص فاه؛ أي: يدلكه بالسواك، وأن يذكر الله تعالى إذا استيقظ، وليتوضأ وليصلي ولو ركعتين؛ لتنحل له عقد الشيطان الثلاث كما ورد في الحديث.

وقد ورد في حال القيام منه أوراد عند المنام كذلك وهو على ثلاثة أقسام: مباح ومكروه، وحرام، وذكر ذلك يطول.

قال الشيخ أحمد العلواني: قال الشعراني: قال شيخنا - قدس الله أسراره -: ومن آفات مطلق النوم في غير وقت الصبح والعصر أنه: يورث الغفلة والنسيان، ويفسد حكم المزاج النفساني، ويكثر كثرة البلغم والسوداء، ويضعف المعدة وينتن الفم، ويربي دود القرع، ويضعف البصر، ويربي الغشاوة على العين، ويضعف الباءة ويفسد الماء، ويورث الأمراض المزمنة في الولد حال تكوينه وغير ذلك.

ومن أقل مفاسد النوم بعد العصر والصبح أنه: يضعف الإيمان بالبعث والنشور، وأحوال البرزخ[1] ويوم القيامة، ويكثر التخيلات الفاسدة حتى لا يكاد

---

(1) البرزخ في اللغة: هو الأمر الحائل بين شيئين فيحجز بينهما ويجمع بينهما، ثم يطلق ويراد به العالم المشهود بين عالم المعاني والصور، وعالم الأرواح والأجسام، وعالم الدنيا والآخرة، ولهذا يسمى عذاب القبر بعذاب البرزخ. والبرزخ: هو الأعراف الذي عرفته، فإن البرزخ هو الأعراف في ذوق أهل الكمال من جهة أنه النسبة إلى كل مقامين، فهو البرزخ الجامع بينهما.

البرزخ الأول: ويسمى البرزخ الأكبر، والبرزخ الأعظم، وهو الأصل لجميع البرازخ والساري فيها، فالمراد بذلك كله الوحدة وهي البرزخية الأولى، سميت بذلك لانتشاء الأحدية والواحدية عنها، فصارت مميزة لأحدهما عن الآخر، فسميت برزخاً لهما، لذلك، ولأجل اشتقاقهما عنها، وتسمى بالجمعية الأولى، لكونها جامعة بينهما، ورافعة بينهما عن البينونة، وموحدة إياهما بل كل منهما هو عين الآخر بحكم اقتضاء الباطن الحقيقي، وإنما كانت الوحدة هي باطن جميع الحقائق الإلهية والكونية وأصلاً لانتشاء الجميع عنها لكون حقيقة الوحدة سابقاً على جميع الحقائق وسارياً بكليتها في جميع الحقائق، بحيث تكون في الإلهية منها إلهية، وفي الكونية كونية أيضاً، ولهذا صارت الوحدة هي المسماة بالتعين

يتعقل شيئًا من أمور دنياه وآخرته ولا بأس بنوم القيلولة أيام الصيف، ولو قيل الظهر فإن النوم قبل الظهر دواء للسهر الماضي وبعده وللسهر المستقبل، وأطال في ذلك.

ثم اعلم أن المريد قد يشتبه عليه المثال بعالم الحس لقربه منه، فربما وقفت للسالك، واقفة وكانت تلك الواقعة من عالم المثال، فيظن أنها وقعت له في عالم الحس، فنقول له: إذا قال لنا قد جهر.

كنت أنا وفلان وفلان جالسين في مكان كذا، وذكر مخاطبات وقعت له معهم هل رأى فلان مثل ما رأيت وسمع مثل ما سمعت؟ فإن قال: لا قلنا له: هذا دليل على أن ما رأيته من عالم المثال، وإن قال: نعم قلنا له: صدقت فما رأيته من عالم الحس.

وقد يكون صاحب هذه الواقعة مفتح العينين، لكن لا بُدّ من ذهول يعتري الرأي في ذلك المحل، وفي هذا المقام تكون الفحوانية، وهي خطاب الحق بطريق

=

الأول، وهو أيضاً: البرزخية الأولى باعتبار النسبة السوائية التي للوحدة الحقيقية إلى الأحدية والواحدية، فإن الوحدة الحقيقية لما كانت هي أول ما يتعين من الغيب الحقيقي، وكانت نسبة الأحدية المسقطة للاعتبارات، ونسبة الواحدية المثبتة لجميعها إليها، أعني إلى الوحدة على السواء، سميت هذه النسبة السوائية بالبرزخية الأولى.

واعلم أن هذه البرزخية الأولى تسمى بحقيقة الحقائق لما عرفت من كونها أصلاً ومنشأ للكل، والساري في جميع الحقائق، فإن الوحدة لا يخلو عنها شيء واحد كان أو أكثر، ثم إنه لما لم يصح أن يكون وحدة الحق وصفاً زائداً عليه لكون الزائد لا يعقل بدون الكثرة التي لا يتعلق اتصاف الواحد الحق إلا بها، صح أن يكون الباري تعالى معنا في كثرتنا بوحدانيته من غير أن يتكثر بنا، فهو القريب البعيد، الظاهر الباطن، الأول الآخر لاستحالة اعتبار أمر خارج عن حقيقة الواحد تعالى.

البرزخ الأكبر: هو البرزخ الأول، لانتشاء جميع البرازخ عنه.

البرزخ الأعظم: هو الأكبر لاستعلائه على جميع البرازخ فلا يتعاظم عليه شيء.

البرزخية الأولى: هي البرزخ الأول إذ لا قبل يتقدمها.

البرزخية الكبرى: هي البرزخية الأولى، وهي النسبة السوائية بين الأحدية والواحدية، فإن نسبة الأحدية المسقطة للاعتبارات، ونسبة الواحدية المثبتة لجميعها إليها على السواء، فلهذا سميت بالنسبة السوائية وهي أول النسب، ولهذا سميت بالأولى وبالكبرى، إذ لا نسبة تعلوها.

المكافحة في عالم المثال، وشرط من هو في عالم المثال أن يعلم المكان الذي هو فيه والزمان، ويعلم أنه بين النوم واليقظة، فإذا لم يعلم بذلك فهو نائم، فإن من كان في اليقظة الصرفة لا يدري فيها إلا ما هو في عالم الملك مشهودًا له بعين الباصرة، وأما من كان في عالم المثال الذي هو عالم الملكوت فلا يرمي إلا بين البصيرة فافهم.

قال سيدي عبد الكريم الجيلي في «الكمالات الإلهية» عند ذكر مضاهاة الإنسان للعالم العلوي، ويضاهي البرزخ بعالم المثال الموجود فيه، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الزمر:42]، فعلم من ذلك أن عالم البرزخ الذي يكون فيه الإنسان بعد الموت هو عالم المثال الذي يكون الإنسان فيه عند النوم؛ لأن الميت ممسوك فيه والمستيقظ مرسل فيه، وقد وجدنا ذلك بطريق الكشف والمعاينة تحقيقًا، وإنما سمي بعالم المثال للحي، وبالبرزخ للميت؛ لأن الحي يضرب له فيه الأمثلة من الحوادث فيعبرها عند يقظته، والميت تظهر له فيه الحوادث صورًا فيرى محله وموضعه من الدار الآخرة عند قوله ﷺ: «**إن الميت ليفسح له في قبره حتى يرى موضعه من الجنة أو النار**»[1] انتهى.

واعلم أن الرؤية لا ينبغي أن تقص إلا على عالم، أو ناصح؛ إذ قد ورد في الحديث: «**الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ، وَلا يَقُصَّهَا إِلا عَلَى وَادٍّ، أَوْ ذِي رَأْيٍ**»[2] وليتثبت القاص لرؤيته ليلاً يزيد فيها فيدخل في قوله ﷺ: «**من كذب في حلمه متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[3].

وفي رواية: «**كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَقْدَ شَعِيرَةٍ**»[4] أي: من النار ومن كذب في

---

(1) لم أقف عليه.

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (87/14)، وأبو داود في «السنن» (363/14). ومن غريب الحديث: «وادّ»: محب.

(3) رواه أحمد في «مسنده» (131/1).

(4) رواه أحمد (76/1، رقم 568)، والترمذي (538/4، رقم 2281)، والحاكم (434/4، رقم 8184)، ورواه أيضًا: الدارمي (168/2، رقم 2145) وعبد بن حميد (ص 58، رقم 86)، =

منامه من السالكين دل على عدم صدقه في سيره إلى الله تعالى، وعلى عدم ورعه في الدين، وكانت وخامة ذلك عائدة عليه، فإن كذبه وإن خفي على الشيخ ورقاه بذلك مقامات وأسماء، وألبسه الكسوة فإن ذلك لا يخفى على الحق سبحانه وتعالى، ولا على أهل طريقه، فلا بُدّ إن لم يثبت عن ذلك ويرجع نادمًا صادقًا في سلوكه من طرد أهل الطريق له، وقذفهم به في ورطة عظيمة، وإذا وجد المريد نفسه يكذب ولم يحصل له شيء من ذلك، فليعلم أنه ممكور به، فليتدارك نفسه بالرجوع والاستغفار، وليخبر الشيخ بما صدر منه ليتوجه الشيخ إلى الله تعالى في قبوله.

واحذر يا أخي كل الحذر من ذلك وإلا سوف تندم، واعرض عن مثل هذا تسلم وتغنم والله سبحانه بحقيقة الحال أعلم وأحكم.

قال بعض المعبرين: اعلم أن أنواع الرؤية أربعة:

أحدها: المحمود ظاهرًا وباطنًا كالذي يرى أنه يكلم الله عز وجل أو أحد الملائكة أو الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في صفة حسنة أو بكلام طيب، وكمن يرى أنه يجمع جواهر أو أكلاً طيبًا، ومكانه في مرفأ أماكن العبادة مطيعًا لربه عز وجل ونحو ذلك.

الثاني: المحمود ظاهرًا المذموم باطنًا كسماع الملاهي أو شم الأزهار، فإن ذلك هموم وأفكار، وكمن يرى أنه يتولى منصبًا لا يليق به، فهو رديء.

والثالث: المذموم ظاهرًا وباطنًا كمن يرى أن حية لدغته، أو نارًا أحرقته، أو سيلاً أغرقه، أو هدمت داره، أو انكسرت أشجاره فإن ذلك رديء له؛ لدلالته على الهم والنكد.

الرابع: المذموم ظاهرًا المحمود باطنًا كمن يرى أنه ينكح أمه، أو يذبح ولده فإنه يدل على الوفاء بالنذر والحج إلى أكبر أماكن العبادة، وعلى أنه ينفع أمه، ويزوج ولده وعلى مواصلة الأهل، وعلى رد الأمانات، انتهى.

وقد اختلفت العلماء في حقيقة النوم، فقال ابن العماد: هو ريح تأتي الإنسان

=

والبزار (209/2، رقم 594)، والضياء (190/2، رقم 570).

إذا شمها ذهبت حواسه كما تذهب الخمرة بعقل شاربها، وقيل: انعكاس الحواس الظاهرة إلى الباطنة حتى يصح أن يرى الرؤية.

وقال البيضاوي: النوم حال يعرض من استرخاء أعصاب الدماغ، فمن رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسًا.

وقال البغوي: النوم هو الثقل المزيل للقوة والعقل، وقيل: النعاس في العين، والنوم في القلب هو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء.

وأما سر عدم حملهم للدراهم فيها، ففي ذلك إشارة إلى الزهد في الدنيا، وعدم التعلق بها، فإن ذلك مما يجب على الطالبين، فإن الزهد في الدنيا أول درجة من درجات الطريق، فإن بالزهد فيها والخروج عنها يحب الرب عبده.

قال ﷺ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**»[1] و«**إذا أحبه كان له سمعًا وبصرًا ويدًا ولسانًا**»[2].

كما ورد في الحديث القدسي، والزهد: هو ترك الفضلات، والترفع عن الشهوات، والقناعة بالقليل، والإقبال على الجليل، وترك الأدنى وطلب الأسنى، والزاهد هو المعرض عما سوى ربه سبحانه وتعالى من دنيا وأخرى ليس له رغبة في شيء سوى الحق تعالى، وليكن زهده بربه فإنه متى كان زاهدًا بنفسه كان واقفًا في ورطة الشرك الخفي، ومتى لم يخطر له خاطر في شيء من الأشياء كان حينئذ زاهدًا بربه، لا بنفسه إذ قد صار الحق مشهوده، فلم يتعلق بشيء غيره تعالى.

وعلى هذا أشار سيدي على وفا - قدس الله سره - بقوله:

تجرد عن مقام الزهد قلبي ... فأنت الحق وحدك في شهودي

أزهد في سواك وليس شيء ... أراه سواك يا سر الوجود

وهذا الزهد هو للكاملين، وأما الطالبون للكمال فأول ما يزهدون في الأموال، ثم الأهل والخلان، ثم في المقامات والأحوال، ثم في غيره تعالى من كل وجود؛ ليرتقوا بذلك إلى مراتب الشهود.

واعلم يا أخي أنه قد ورد في ذم الدنيا أحاديث كثيرة، ومعلوم أن حبها رأس

---

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (486/5)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (2/3).

(2) رواه البخاري (392/21) بنحوه.

كل خطيئة فقد قال ﷺ: «**الدنيا جيفة وطالبها كلاب**»[1] وقال ﷺ: «**الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ**»[2] وقال ﷺ: «**فَوَ اللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا؛ فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا ابتلاه الله بثلاث خصال: أمل لا يبلغ منتهاه، وفقر لا يدرك غناه، وشغل لا ينفك مناه**»[4].

ولا تظن يا أخي أن الزهد في الدنيا محمود مطلوب من المريدين، وليس بمطلوب من العارفين، بل ذلك في حقهم أكبر إذ هم خواص الناس المقتدى بهم، والمستظل بركبهم.

ولقد سمعت سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي - حفظ الله تعالى وجوده في الأكوان ولا زال علمه يهتدى به لمنازل الإحسان - يقول: إن العبد كلما كمل كان اتباعه وانقياده للشريعة المحمدية أكثر، انتهى.

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (409/1)، قال الصغاني: موضوع، أقول - يعني العجلوني -: وإن كان معناه صحيحًا لكنه ليس بحديث، وقال النجم: ليس بهذا اللفظ في المرفوع، وعند أبي نعيم عن يوسف بن أسباط قال: قال علي بن أبي طالب: «**الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب**»، وأخرجه ابن أبي شيبة عنه مرفوعًا، ورواه البزار عن أنس بلفظ: «**ينادي مناد دعوا الدنيا لأهلها ثلاثا، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر**»، وذكره السيوطي في «الدرر» بلفظ: «**الدنيا جيفة، والناس كلابها**» رواه أبو الشيخ في «تفسيره» عن علي موقوفًا، ثم قال: وأخرج الديلمي عن علي مرفوعًا أوحى الله إلى داود: «**يا داود مثل الدنيا كمثل جيفة جمعت عليها الكلاب يجرونها أفتحب أن تكون مثلهم فتجرها معهم**»، وقد نظم إمامنا الشافعي رضي الله عنه ذلك حيث قال وأجاد:

ومن يأمن الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبها وعذابها

فما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

(2) رواه أحمد في «مسنده» (262/53).

(3) رواه البخاري (274/11)، ومسلم (500/18).

(4) رواه الديلمي في «الفردوس» (68/4)، وذكره المتقي الهندي في «الكنز» (411/3).

فإذا كان كذلك فالعارفون هم المقتدون برسول الله ﷺ من التعليق في الدنيا والأخذ في الجد والاجتهاد دون الدعة والراحة.

قال بعض العارفين: فسق العارف أخذه من الدنيا أكثر من قدر الضرورة.

وقال سيدي جعفر النيسابوري - قدس سره -: فسق العارف إطلاق الطرف واللسان، والسمع إلى أسباب الدنيا ومنافعها.

وقال سيدي عبد القادر الجيلاني - قدس سره -: العارف ينفر بنفسه عن الدنيا، وبروحه عن التعلق بالفاني وبقلبه عن إرادته مع إرادة مولاه، فيتجرد بسره عن أن يلمح الكون أو أن يخطر على سره.

وقال سيدي معروف الكرخي ﷺ: ولولا أن أخرج حب الدنيا من قلوب العارفين ما قدروا على فعل الطاعات، ولو كان في قلوبهم من حب الدنيا ذرة واحدة لما قبل لهم سجدة واحدة، انتهى.

وما زهد العارفون في الدنيا إلا لما رأوا سيدهم ﷺ قد زهد فيها، وأعرض عنها فعلموا أن لو كان في طلبها كمال لطلبها سيد الكاملين، فاقتدوا به في الزهد فيها، بل في سائر أخلاقه؛لأنه لا أكمل منه حتى يقتدى به، وأما من جنح إلى شطحات بعض العارفين كأن يقول: أين الغير حتى أزهد فيه؟ فهذا دليل على عدم كماله، ووقوفه بعد في مقام الرعونة.

وأما الكامل فهو المقتدى به ﷺ ويقال لمن جنح إلى زخرف القول: ألم يكن رسول الله ﷺ أعلم الخلق بما جنحت إليه فلم يقل بذلك، بل أعرض عن الدنيا بالكلية، وأمر بالإعراض عنها أهل بيته وخواص أصحابه؟! فهذا هو المقام الأكمل إذ هو عطاء كل ذي حق حقه من دنيا وعقبى وغير ذلك، فمن لم يوف كل مقام حقه، فليس من الكاملين، بل هو طالب كمال وكل من طلب الدنيا بعد خروجه عنها فذاك تنزل منه إليها تنزل اختيار لا تنزل اضطرار.

وقال سيدي محيي الدين ابن العربي - قدس الله سره - في كتابه المسمى بـ«روح القدس في مناصحة النفس» بعد أن ذكر الزهد في الدنيا، وعدم الرغبة فيها أحاديث كثيرة يخاطب نفسه:

«فأين أنتِ يا نفس وهذا العارف - أي: الذي توسع في الدنيا - فلا الحق

رضيها لنبيه، ولا النبي رضيها لابنته ووصيه، وإذا لم تقتدي بهذا النبي، ولا عرفت تنزيل الحق ﷻ للمواطن فقد خرجت عن حد المعرفة بالله تعالى، وحب حالة رسول الله ﷺ واتباعه، ولا فائدة ولا تمييز للعارف عن غيره من العوام إلا باستصحابه في حالته حالة النبي ﷺ، وأما العامة فانهمكت في المباحات؛ فيما تميزت عنهم في ظاهرِك كما تدعيه في باطنِك.

ألست تدري يا نفس ليلة كنا عند أبي محمد عبد العزيز المكتوب إليه هذه الرسالة، ونحن على العشاء فتكلمنا في حال الدنيا إذا أقبلت على العارف، وتصرف فيها مع تعري قلبه عن التعلق بها؛ قال ﷺ: «والله ما يسوى فراغ قلب العارف عنده درهمان، وفراغ قلب عارف عنده درهم، فصاحب الدرهم أفرغ قلبًا من صاحب الدرهمين» هذا حكم الشيخ أبي محمد عبد العزيز في هذا المقام؛ فكيف لو دخل معك في باب المقام والأسرار؟! لكان يرمي بهم خارجًا عن المعرفة؛ فإن الحقائق ترميه والمواطن تمجه». انتهى.

فهذا كلامه ﷺ مع العارفين المحققين، فكيف بالمريدين؟! فذاك متحتم عليهم فإنهم لا بُدّ أن تشغلهم الدنيا بيقين، فلهذا أمروهم بالخروج عنها، لكن ليس أيام الخلوة فقط، بل كل حين.

وقد سُئل سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني عن شر خلق الله تعالى من هم؟ فقال: من اشتغل بالدنيا عن الآخرة، ثم لم ينل ما طلب فهذا أشر ما خلق الله وأجهلهم وأحمقهم وأخسهم عقلاً وبصيرة، انتهى.

وأما من أمسك الدنيا عنده من كبار التابعين والأولياء العارفين، فذلك لتسكين الجزء الذي يضطرب عند فقدها لا غير، ولا يسلم من اضطراب هذا الجزء إلا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأما المريد فلا ينبغي له إمساك شيء عنده حتى تكمل مجاهدته لنفسه، ولا تصير تشغل الدنيا قلبه، فحينئذ كما زهد فيها بإذن من ربه يمسكها عنده بإذن من ربه، فالزهد في الدنيا مقام وتركه مقام، ولكن الأول للسالكين، والثاني للعارفين الذين نزلوا الأشياء منازلها من غير أن يكون عندهم ميل إلى شيء من الأشياء، ودليل صحة ذلك أنهم لو ملكوا الدنيا بحذافيرها، ثم سلبوا من ملكها ما تغير لهم في ذلك شعرة؛ لأنهم مع مراد الله لا مع مراد نفوسهم، لكن من كان رئيس قوم فلا ينبغي له أن يتمسك بالدنيا لئلا بعد غيره، فيدخل في وعيد

«من غشنا ليس منا»[1] بل يجب عليه أن يزهد في الدنيا بقدر الإمكان ليقتدي به أتباعه.

وقد أفتى بعض العلماء أنه لو أوقف أحد وقفًا على الغفلاء أنه يصرف إلى الزهاد فإنهم أعقل الناس؛ لأنهم آثروا ما يبقى على ما يفنى، فمرتبة الزهد في الدنيا وعدم التمسك بها مرتبة عظيمة، وهي حالة النبي ﷺ وأصحابه فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به وبهم آمين.

وأما سر شربهم للماء والدبس آخر ليلة منها، ففي ذلك إشارة إلى أن عيشهم قد حال ومطلوبهم قد انجلى، والساقي لكؤوسهم قد ملأ وأباح لهم شرب الحلال من الطلاء.

وقد تحققوا في سر الاختلاء بالخلاء، وامتدت أعناقهم إلى التحقق في خلوة الملأ، وأنشد:

أيا من كؤوس الوصل للصب قد ملأ ويا من إلى الطرف الكحيل قد انجلا

أذقنا شراب الأنس منك فإننا كفانا الذي ذقناه من ألم القلا

أتيناك بالفقر الشديد إلى اللقاء وليس لنا إلاك كهفا ومنهلا

وفيه إشارة أخرى وهي أن الساقي لما علم أنهم في هذه الليلة تحصل لهم الجلوة والحضور وأسقاهم مدام الغرام وبشرهم بحصول المرام، فدارت عليهم كاسات السرور فأول ما ترد تلك الكؤوس على الرجال، ثم على بقية الأطفال، ثم على الحاضرين من أهل الاعتقاد، ثم يسمحون بعد ذلك لأهل الانتقاد رجاء أن يرجعوا بأمداد السقاة النقاة.

وينشدون في معنى ذلك:

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة وللأرض من خمر الكرام نصيب

ثم أنهم ينشدون حال تعاطيهم لهذا الشراب، وتناولهم من هذه الأكواب، قال سيدي عمر من للواء المحبة قد نشده:

شَرِبْنا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَةً سكِرْنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ

---

(1) تقدم تخريجه.

أي: لا تظنوا أن هذا الشراب مقصود لنا بذاته، ولو رأيتمونا قد شربناه من كاساته، بل نحن قد شربنا على ذكر الحبيب العظيم[1] شرابًا مزاجه من تسنيم، وتعاطينا مدامة ليست محرمة بملة من الملل، ولا قال أحد إن فيها علة من العلل، وهي التي قال في نعتها العارف:

مدامة خبرت عنها مشايخنا ... مسلسلاً، وحكى عن قدسها السلف

وهي المنعوتة بقول القائل:

ولا نص في تحريمها عند مالك ... ولا حدّ عند الشافعي وأحمد

ولا أثبت النعمان تنجيس عنها ... فخذها بحدّ المشرفي المهند

فهذه أيها الجاهلون هي التي قد سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم، فنحن بهذه هائمون وعن غيرها صائمون، واعلموا أن هذه إشارة من تلك المدامة وهذه على شمس تلك غمامة.

وفيه إشارة أخرى وهي أن القلوب لما التهبت من الأشواق، وكادت أن تحترق لشدتها الأطواق، فيبدو ما خفي من تلك الأحوال، ويظهر عن المشتاقين سطحي في الأقوال، فأرادوا أن يخففوا بعض ذلك بما يناسب ما هنالك، فوجدوا هذه قريبة من تلك الأشائر، وملوحة كاشفة من هاتيك الستائر.

ولقد أنشد التستري - لمن لوّح له أستاذه عن هذه الخمرة الحقيقية، وأراد أن يمضه إياها بمجرد الألفاظ النطقية ليختبر في ذلك صدق طلبه، وليعرف هل يقدر على رفيع مشربه؟ فقال له بعدما طلب لما رآه في شربها قد رغب -:

فدونك خمري قد أبحتك شربها ... وناولنيها في أباريقها تجلا

---

(1) يقال: العظيم الملك القادر على الإطلاق فلا يعجزه شيء. ويقال: العظيم المستحق لأوصاف الكمال. ويقال: العظيم الذي هو المستحق للطاعة، فيجب التذلل والخضوع لعزه.
ويقال: العظيم الذي يلتجئ إليه المنقطعون ويفتخر. ويقال: العظيم المستحق للربوبية المنفرد بالإلهية، فلا يحتاج إلى أنصار، ولا أعوان، ولا يحده الزمان، ولا يحويه مكان.
ويقال: العظيم الذي لا يرتقي وهم إلى تصويره، ولا يطمع فهيم في تقديره. ومن عرف أن الله تعالى هو العلي العظيم امتلأ قلبه بتعظيمه، وإجلاله، وهيبته، وتنظيم أوامره ونواهيه، والتعظيم معنى في القلب زائد على العلم بوجود الله تعالى.

فقلت لـه: مـا هـذا الـراح مقتدى ولا أبتغـي مـن راحكـم هـذه نـبلا
ولكنهـا راح تقـادم عـصرها فمـا وصفها قبـل ولا عرفـت قبلا

وقلت في وصف هذه الخمرة القدسية، والشربة الأنسية من قصيدة:

يـا خاطبـا بكـر الطـلاء وراغبًـا في نيـل قـرب الـدار مـن ليلائـي
هـي لهـا مـا خاطبتـك بـه وسـر لخيامهـا تحظـى بهـا يـا نـائي
وإذا بـدت أنوارهـا لـك جهـرة وفنيـت عنـك وعـن فنـاء فنـاء
وولجـت فـي بحـر الحقائـق وظلّـت أسـرارها تبـدو بغيـر خفـاء
فاجعـل فـؤادك تربـة وادفـن بهـا مـا قـد منحـت علـى السـراء
وإذا وجـدت لـذة العلـوم قـوابلا فـامنحهم وامـزج لمريقـه مـاء
مـن بعـد شـربهم أدر صـرفًا ودع للجاهـل المغتـرّ فـي الظلمـاء

وقلت في وصفها من قصيدة:

قـوم لقـد قـاموا علـى قـدم الوفـا وبهـم هنـا كملـت لنـا الآداب
وعليهم عقـد الـدنو خناصـرا فيسير نحـو علومـه الأقطـاب
أنسابهم تـسموا علـى كـل الـورى إذ تـذكر الأنـساب والأحـساب
فهـم الـسكارى مـن شـراب حبيبهم شـهدوا فـلا حجـب ولا حجـاب
غـابوا بـه عنـه بـسر ظهـوره بـل عـن معينهم بـه قـد غـابوا
أسـقاهم الـساقي بكـؤوس قدسـه وأحالهـا الوصـف الحميـد أحبـاب
هـي خمـرة عينيـة غيبيـة تاهـت بحـسن شـعاعها الألبـاب
يحتسي كأسًـا لهـا سـلب الفهـام إذ للقلـوب عبيـر لهـا سـلاب
لـم تقـصد الغـلاب غيـر كؤوسـها وبـشربها الطـلاب لا ترتـاب
حلّـت فـلا يخشى الملامـة شـارب منهـا ولـيس علـى المـدير حـساب
فـاخلع عـذارك والهـاً فـي شـربها فهـي العبـاب وغيرهـا فـسراب

وقلت في قصيدة أخرى:

هيا لها يا من لها بسواء … وهي إن السوى من الحجاب

واشرب في تلك المحاسن والهاً … من خمرة قد عتقت بخواب

عذراء لا تجلى نجوم كؤوسها … إلا لفان بالبقاء جواب

وقلت في قصيدة أخرى:

وجلست في حانات خمار النهى … وأخذت أملي الكأس بالطاسات

حتى سكرت بخمرة قدسية … محمية من سائر الآفات

فإذا بها عربدت وجدًا لا تلم … ولا تدم عسى أن تسقى في كاسات

هذا النعيم هو المقيم بحاله … من لم يذقه مات بالحسرات

هذا الشراب فإن تذق كأسه … تحيى به من بعد ممات

وقلت في قصيدة:

سكرة في الحب تسوى الروح والمال … والآل وما يستكثر

أيها اللاجئ بشربي عنك دع … لوم صب بنت كرم يسكر

كيف لا أشرب خمرًا شربه … فيه سعدي بل به افتخر

وقلت من قصيدة:

أدر لي خمر الحب لا خمر حبة … فتلك حلال ليس في شربه مرا

لقد حارت الألباب في وصف حسنها … وقد أدهشت عقلاً ولبًا كذا فكرا

فلا تعترض يا ذا العذول بشربه … فعليك عن ثوب المحبة قد عرا

فهذا ما شالت لشام ختامها … فكيف إذا أزاحته قل لي مخبرا

وبالمزاج داروا فباحوا وصرحوا … فكيف إذا جاءوا بها صرفة برا

رفيقة قد رمز لها ذات مرة … يعود سعيدًا من سناها منورا

مليك بها تنجو من النار في غد … وللقلب احتضر بك الثرى

فلو شاهدت عيناك أهل وردها … وشاهدتم أسرى بمشهدها الفرا

لمزقت أثواب الحياء تهتكا … وبحت كما باحوا شاربي خمرا

وقمت على أقدام ذلك خاضعا لتؤدي لها شكرا فلم تستطع نظرا

وقلت في أخرى:

هي الخمرة المشهورة بأنها تقيد الدجا صبحا إذا الليل عسعسا

تطوف بنا خمرًا فيسكر طيبها عوشقة منّا رجالا ومن نسا

يعز على أهل العقول اختيارها ومن حاد عنها فهو عبد لقد أسا

وما لها إلا أمر جدّ قلبه على منهج التقوى أقام وأسّا

وقلت في أخرى:

يا ذا الذي ما ذاق طعما للهوى إن رمت تصبح في المعارف ناشي

كن أحمدي السير بكرى الطلا مستأنسًا في الحب فلا يحاشي

واشرب شراب الوصل إن تك ناظرًا سر الوجود وعنك غبّ التلاشي

وقلت في أخرى:

وعديد على الصاحي سكران إن تكن برشف للماء قد فزت أو جزت للقا

وكن يا فتى ممن بشدة بأسه إلى مقلة الهجران بالوصل قد فقا

وعادي لمن قد لام في شرب خمرهم وصافي لمن كأس التصافي منقا

وكن أحمدي الشرب صافي الردى وإياك أن تلوي على من تزندقا

وشم نسيم الوصل من عرف بانهم وكن في الحمى ممن بحق تحققا

فهذا شراب لم يشبه مدنس تضفي عن الأمشاج قدما معتقا

وقلت في أخرى:

قهوة الدّان أسكرت كل صب هام فيها من قبل خلق المدام

قهوة من لها يذوق يقينا ليس يصحو سكرًا ليوم القيام

يا مدير كأس الحميا هاتاه وأدره صرفًا فذاك مرامي

واسقني شربة لقد عتّقوها سادة الحيّ الحباب لظامي

ثم دعني أهيم فيها على من لم يذقها رشفاً بطيف المنام

وقلت من قصيدة:

فهـذه خمـرة ميـت الغـرام بهـا يحيـى ويـدرك آمـالٍ وأمـاني

وهـذه خبـرت عنهـا أئمتنـا يجوز مـذاقها فـي حـر يرانـي

وهـذه لهـا يومـا يـذوق فـذا يغيـب فيهـا بهـا عـن كـل أكـوان

وهـذه مـن لهـا أمّـت ركايبـه نـال المنـا والهنـا مـن طيـب عرفـان

وقلت من أخرى:

هـذه خمـرة بحكـم إلهـي لـم ينلهـا إلا الـذي يرضـاه

لـم ينلهـا إلا فنـاء سـبل الـرو ح وفـي الحـي ربّـه رقـاه

وادفـن السـر فـي الحشـا لا تجـي لجهـول وصـنه بـل وأرعـاه

وتحقـق بـأن مـن بـاح بالسـر إلـى الغيـر فـالمراد مثـواه

هكـذا قـد أتـم عـن القـوم فـافهم مـن يـبح سـرنا أبـيح دمـاه

وقلت في أخرى:

فـارق بهـا الكـونين واقـصد مـن إذا فاتـك فـإنّ كـل عـيش قـد حـلا

هـي خمـرة قدسـية أنـسية خمارهـا كـأس التـصابي قـد مـلا

هي جنـة الرضـوان مـن قـد حلهـا نـال الأمـاني والتهـاني قـد بـالطلا

هي حـضرة التقريـب مـن يرقـى لهـا يغـدو عزيـزًا فـي الوجـود مـبجلا

يـا ذا الـذي قـد شـط عـن حاناتهـا فـإلى متـى ترمـي بأسـياف القـلا

جـرد سـيوف العـزم نحـو ديارهـا واقصد حمـى الخمّـار والواشـي فـلا

وادخـل حمـى سـلمى فمـا اهمـى بهـا روض النمـا فـي حيّهـا المهـدي الظـلا

فـإن تـك سـليمة مـن فـضلها ترقـا علـى مـن قدسـها أو مـن عـلا

واعلم يا أخي أنني إنما ذكرت لك هذه القصائد التي وصفنا فيها هذه الخمرة الإلهية لتتنبه من سنة عقلتك، وأن تفيق من رقدتك وتعرف أن لهذه الخمرة المشار إليها سرًا لا يدرك ولا يترك فتجتهد في نيله فإن قل أن يناله إلا الصادقون المجدون، ولا تظن يا أخي أن هذه الخمرة المنعوتة بهذه الأوصاف الذي تكلم في أوصافها الجهابذة الأشراف هي ما تقوله العوام أهل الأمراض والأسقام.

إن المقصود منها مجرد لفظ الجلالة، ويظنون أنهم فهموا مقصود أهل الحق في مثل هذه المقالة، بل هي سر لا ينال إلا بالكشف والعيان، ولا يتحقق فيه إلا بالذوق والوجدان، إذ هي كناية عن المعرفة الذاتية والأسرار اللاهوتية، وإنما يشبهون هذه المعرفة بالخمرة؛ لما بينهما من الشبه لأنه كما أن هذه المعرفة تدهش وتغيب عما سوى المعروف، فكذلك تلك تدهش عن الخلق بالكلية، وكما أن هذه إذا شرب منها إنسان شطح وعربد وتكلم بكلام لا يفهم ولا يعقل فينسب عند ذلك للجنون والذهول فكذلك تلذذ.

وقد قيل لأبي يزيد البسطامي - قدس سره -: ما لنا لا نفهم كثيرًا مما تقول؟! فقال: لأن الأخرس لا يفهم كلامه إلا أبواه.

ولما أُحضر الحلاج للقتل قال في بعض مخاطباته: «وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تغضبًا لدينك وتقربًا إليك فاغفر لهم فإنك لو كشفتَ لهم ما كشفت لي لما قالوا ما قالوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليتُ، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد».

أي: فإنك لو كشفت لهم من سر ظهورك الذاتي كما كشفت لي عن ذلك لما قالوا ما قالوا إنني ألحدت وكفرت، ولو سترت عني سر ذلك كما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت من أجر هذه الكلمات المنكرة التي لا يفهم معناها عندك المحجوبين، فلك الحمد فيما تفعل حيث إنك أجريت على لساني هذه الكلمات التي هي من جملة أفعالك، فإنه لا حول ولا قوة ولا إرادة إلا بك، ولك الحمد فيما تريد من إهراق دمي صونًا لأسرارك ووقوفًا مع حدودك.

واعلم أن من سمع كلمات الحلاج لو لم ينكر عليه لأنكر هو عليه، فإنه قد خوطب بإنكار مثل هذه الكلمات وردها على قائلها وإقامة الحدود الشرعية عليها.

وقد قالوا في السيد موسى والخضر - عليهما الصلاة والسلام - أنه لو لم ينكر موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام لوجب إنكار الخضر عليه السلام على موسى عليه السلام بأن يقول له: لأي شيء لم تنكر عليّ فيما قد فعلتُ معه أنه مخالف لما جئتَ بهِ، فكان السيد موسى عليه السلام ينكر على الخضر عليه السلام ما يفعله قيامًا بحق شريعته، وإن كان قد اطلع على سر حقيقته، فافهم.

وأيضًا فكما أن تلك الخمر تخمر العقل، وتغيبه عن الحس حتى أن صاحبها

لا يدري أهو في الأرض أم في السماء؟ فكذلك هذه، إلا أنها تزيد على تلك في الإسكار، وما تلك بالنسبة لهذه إلا كلا شيء، فإن من ذاق هذه وتحقق فيها لا يصحو ولا يفيق أبد الآبدين، ودهر الدهرين فأين هذه من تلك؟! ولقد أشرت إلى فرط إسكار هذه بقولي في قصيدة:

فما الخمر إلا مخمر العقل وحده   وخمرتها تسري إلى كل شعرة

وأيضًا فإن أهل هذه الخمرة إذا ذكروا الساقي إما أن يريدوا به الحق سبحانه وتعالى أو النبي ﷺ أو الشيخ والكاسات يريدون بها قوالب الألفاظ الحاملة لتلك الأسرار، ويريدون بالأكواب صدور الرجال الكاملين؛ لأنها مجمع المعارف الإلهية، واللطائف الربانية، ويعنون بقدمها من أن المعرفة الإلهية موجودة بوجوده، فكانت قديمة بقدمه، ويعنون بالحبيب هو ما يظهر حال تعاطي هذه الخمرة من العلوم، وما يبدو لشاربها من السر المكتوم؛ لأن الشارب كلما تعاطاها انكشف له عن أشياء لم تكن ظهرت له من قبل.

واعلم أن الذوق من هذه الخمرة الأقدسية، والشربة الأحمدية إنما يكون في مبادئ التجليات الإلهية، والشرب منها إنما يكون في منتصفها، والري منها في غايتها فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الري صالح، فالأول أثمرت تجلياته، والثاني أنتجت كشوفاته، والثالث قد صفت وارداته فالذوق نتيجة عن صفاء المعاملات، والشرب نتيجة وفاء المنازلات، والري نتيجة عن دوام المواصلات، فمن لم يذق من كاسات هذه الخمرة فهو محجوب عن سر المعرفة الذاتية مضروب بينه وبينها بسور، وهذا عند القوم يسمى بالأعمى، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:46] ومعلوم أن الأذواق تختلف على قدر إلقاء بليته والاستعداد والتخصيص الإلهي الأزلي، فلهذا اختلفت الأجناس والأشخاص، فتنوعت همم الخواص على قدر ما أعطتهم الحقيقة الإلهية من الاتساع والرفعة والاقتناع، وإلى هذه إشارة بقول القائل:

وكل فتى على مقدار ما قد   سقاه بكفه الساقي يغني

فإذا ذاق وعرف شرب واغترف، فلا يزال كذلك إلى أن يرتوي مما هنالك،

وقد لا يرتوي الشارب من هذه المشارب لعلو همته ولرفيع جذبته، ولتوقد نيران عشقه، ولحرارة فهمه وحذقه، فكلما ازداد شربه من هذه المدامة ازداد سقمه، وثار غرامه وكان ذلك على تحكمها منه علامة، وقد قلت في ذلك من قصيدة:

أزيد اشتياقًا فاكلما أزدت في قربي وتعلقني وجدي فأنشد بالركب

وازداد في شربي إليكم تعطشًا ويطلق دمع العين منهل كالسحب

وقد كتب سيدي يحيى بن معاذ الرازي إلى الإمام الجنيد البغدادي - رضي الله عنهما -: يا أبا القاسم هاهنا من شرب من المحبة شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

فكتب إليه الجنيد: يا أبا زكريا وهاهنا من شرب البحار السبعة، وها هو قد بلع لسانه وقعر فاه ينادي - بلسان تعطشه إلى الازدياد -: واعطشاه، انتهى.

وقد يكون الشارب المرتوي من هذه الخمرة بالنسبة لغيره نهرًا من بحر أو يومًا من دهر لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف:32]، فالمشروب واحد والأذواق تختلف، فيتكلم كل واحد على مقدار ما شهد وعلم وذاق.

واعلم أن هذه الخمرة هي التوحيد الذي هو البحر المورود والباب المقصود، والتوحيد قد يكون مع الشرك الخفي؛ أي: الذي قد خفي عن صاحبه وهو من أقبح الذنوب، وحينئذ القلوب وإلى شدة اختفائه أشار ﷺ بقوله: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النملة على الصفا**»[1] والتخلص منه متعذر بالاستقلال لكنه سهل بالمتابعة للرجال، وقد يكون مخلصًا من ذلك، وهذا هو التوحيد الكامل الذي ليس فيه رائحة شهود لغير المعبود الحق الموجود وهو؛ أي: التوحيد على ثلاثة أقسام توحيد عوام، وتوحيد خواص، وتوحيد خواص الخواص.

---

(1) رواه هناد في «الزهد» (434/2، رقم 849)، والحكيم (142/4)، وأبو يعلى (60/1، رقم 58).

قال الهيثمي (224/10): رواه أبو يعلى من رواية ليث بن أبي سليم عن أبي محمد عن حذيفة، وليث مدلس، وأبو محمد إن كان هو الذي روى عن ابن مسعود، أو الذي روى عن عثمان بن عفان فقد وثقه ابن حبان، وإن كان غيرهما فلم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في رسالة «الغيبة في المذكور من الذكر للحضور والهيبة» فإذا لم يصل الإنسان إلى التوحيد الثالث فهو ناقص الإيمان بالنسبة للواصل إليه، فيجب على من لم يكن واصلاً لذلك البحث عن أهله العارفين به الموصلين إليه، وليلازم على أبوابهم فلعله أن يصح له التشرف بأنسابهم، ولا يتسلى بلعل وعسى، فإن الكسل من خصال النساء.

ولما كانت المعرفة واجبة كان السلوك في طريقها الموصل إليها كذلك؛ لأن ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولقد أشرت إلى ذلك بقولي:

اعلم بأن السير نهج القوم ... فرض على كل الورى كالصوم

إذ فيه تعرّف الورى مولاهم ... من فضله والجود فداء ولاهم

فاسلك به بالصدق والمحبة ... تدرك فيه لمقام القربة

وجرد الفهم وسر بجدّ ... ولا تقل كان أبي وجدّي

فليس يدعى كاملا إلا الذي ... يهديهم قدسا للمسك الشذي

ولا تقل قد انطوى فإنه ... لا ينطوي بساطه لكنه

قد اختفى لشدة الإنكار ... وقل إن يبدو لذي الإبصار

وأنه قد عزّ عن أن يدركا ... ولم يكن بممكن أن يتركا

فإن ترم سيرًا فسر مسرعا إلى ... صب عليه بعض آثار الولا

واخدم إلى أعتابه بالذلّ ... وأقبل عليه دائما بالكلّ

فإنه قد جاء في الأقوال ... عن الثقاة سادة الأحوال

يحكون عن عز طريق المصطفى ... بأن من قد جاءه للاقتفا

بكله يعطيه بعضه فقد ... بيّنت للطالب من فيه اجتهد

فلا تخلّ يا أخي عن هذه السنن ... ومل لها من في الهوى قد افتتن

وكن بذا ممن به يستمسك ... تكن كصب باللقاء يستمسك

ثم الصلاة بعد والسلام ... كذا تحيات لها الختام

علـى نبـي خـص بالأسـرار وجـامع الفخـار والأنـوار

محمـد وآلـه وصـحبه القـادة الأخيـار ثـم حزبـه

والتـابعين مـا بـدا نجمهـم ومـا لاح صـباح أو سـرى بـدر السـما

وإنما دخلوا الخلوة ليلة الثلاثاء؛ فلأن خلوتهم ثلاثة أيام فيمسكون يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس، ويخرجون ليلة الجمعة؛ ليغسلوا ويغتسلوا ويبكروا ويتكروا، ويطيبوا ويلبسوا أحسن الثياب، ويأتوا إلى صلاة الجمعة عاملين بسنتها متأهبين لها.

وأما سر ذلك فلأن يوم الثلاثاء يوم يستحب فيه إهراق الدم لأجل ذلك استحب فيه الحجامة، قال ﷺ: «**الْحِجَامَةُ يَوْمَ الثُّلاثَاءِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ دَوَاءٌ لِدَاءِ سَنَةٍ**»[1] وفي رواية: «**الْحِجَامَةُ فِي الرَّأْسِ شِفَاءٌ مِنْ سَبْعٍ إِذَا مَا نَوَى صَاحِبُهَا: مِنَ الْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَالْبَرَصِ، وَالنُّعَاسِ، وَوجعِ الضِّرْسِ، وَالصُّدَاعِ، وَظُلْمَةٍ يَجِدُهَا فِي عَيْنَيْهِ**»[2] وفي رواية: «**أَنَّ يَوْمَ الثُّلاثَاءِ يَوْمُ الدَّمِ وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَرْقَأُ**»[3].

وقد أنشد سيدي علي بن أبي طالب ﷺ في الحجامة في هذا اليوم مطلوبة قوله:

وإن تـرد الحجامـة فالثلاثـا ففـي سـاعاتها سـفك الـدما

ولما كان هذا اليوم يستحب فيه إهراق الدم، وكان هذا أول يوم الخلوة رمزوا في ضمن ذلك أننا نريد أن نهرق دم نفوسنا بسيف المجاهدات، ونطعنها بأسنة المخالفات حتى تلين بعد قسوتها، وتصفو بعد كدورتها، وتنقاد إلى الأوامر وتنتهي عن الزواجر، وتتقيد بقيود الطاعات، وتراعي فوات الأيام والساعات، وتجاهد فيها كل الجهاد، وتسلك بها سبل الرشاد قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:69] وقال ﷺ: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»

---

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (146/15).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (242/9).

(3) رواه أبو داود في «السنن» (352/11)، والبيهقي (340/9، رقم 19323) وقال: إسناده ليس بالقوي. وأخرجه أيضًا: العقيلي (150/1) ثم قال: ولا يتابع عليه وليس في هذا الباب في اختيار يوم للحجامة شيء يثبت.

قيل يا رسول الله: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «الجهاد في النفس»[1] والجهاد فيها هو المخالفة لها في جميع ما تأمر به إلا فيما ليس فيه مخالفة، ولا إهمال لأوامر الحق تعالى، فمخالفة هوى النفس هو المقرب لصاحبها من حضرة القدس.

ولقد سُئل الجنيد من بعض المجاهدين فيها بقوله: متى يكون داء النفس دواءها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ونقل عن سيدي أبي يزيد أنه قال: دعوت نفسي مرة لطاعة، فتكاسلت فمنعتها شرب الماء سنة، وحكايات القوم في مخالفة نفوسهم كثيرة، وقد أنشد بعضهم في ذلك:

إذا طالبتـك الـنفس يومـا بـشهوة وكـان عليهـا للخـلاف طريـق

فخـالف هواهـا مـا استطعت فإنما هواهـا عـدو والخـلاف صـديق

قال الشيخ تقي الدين الحصني في بعض كتبه - رحمه الله تعالى -: قد رأيت منقولاً إن في الآدمي ثلاثين ألف وصف رديء، والنفس الأمارة تدعو إلى الوقوع في جميعها، وسمعت من بعض المشايخ يقول: إنها خمسون ألف وصف رديء، ولا مخلص منها إلا كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:53]، إلا من عصمه ربه، وقد قيل لا يدرك الشخص حقيقة الإيمان إلا بذبح النفس بسيوف المخالفة، وذلك لأن النفس بطبيعتها ميالة إلى المهالك والمعاصي، والأمر الفصل في حقها أن الشخص لا يتخلص من شوقها إلا بطعنها بأسنة المخالفة حتى يثخنها، ولا يفتر عن ذلك فإنها مهما كان لها حركة لا يؤمن عليك منها قدسية واحدة تقتلك وأنت لا تشعر.

وقال الجنيد سمعت جدي يقول: آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه وكان علي ﷺ يقول: من لم يسخط نفسه في شهوتها لم يرضِ ربه في طاعته، وكان أبو بكر الجلاء تقول له نفسه: أنا أصبر على عشرة أيام، وأطعمني بعد ذلك شهوة، فيقول لها: لا أريد ذلك اتركي الشهوة.

وروي أن سيدنا موسى ﷺ وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: يا رب متى تكون لي؟ قال: إذا لم تكن لنفسك، قال: متى لا أكون لنفسي؟ قال: إذا

---

(1) ذكره السيوطي في «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» (11/1) بنحوه.

نسيتها كلها.

وقال أبو يزيد ﷺ:رأيت رب العزة في النوم، فقلت له: يا رب كيف الطريق إليك؟ قال: «اترك نفسك ثم تعال».

وقال بعضهم: ما دامت النفس حية تسعى فهي حية تسعى، وأنشد:

توق نفسك لا تأمن عوائلها فالنفس خبيثة سبعين شيطانا

قال القشيري في«الرسالة» عند ذكر النفس: نفس الشيء في اللغة وجوده، وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود، ولا الغالب الموضوع وإنما أرادوا بالنفس ما كان معلومًا من أوصاف العبد، ومذمومًا من أفعاله وأخلاقه.

ثم أن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين:

أحدهما: يكون كسبًا له كمعاصيه ومخالفاته.

والثاني: أخلاقه الدينية فهي في نفسها مذمومة، فإذا عالجها العبد ونازلها تنفى عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على مستمر العادة.

فالقسم الأول: من أحكام النفس ما نُهِيَ عنه نَهي تحريم أو نهي تنزيه، وأما القسم الثاني: من قسمي النفس بسفاسف الأخلاق، والدني منها هذا حده على الجملة، ثم أخذ في حدها على التفصيل فراجعه، انتهى.

فكان الخلوتية يسيرون بجعل خلوتهم أولها يوم الثلاثاء الذي هو يوم إهراق دم كما أسلفنا [لأن] مقصودهم في هذه الخلوة المجاهدة في النفس بالتخلية عن جميع قبائحها، والتحلية بجميع المآثر والأوصاف الحميدة.

وأما سر خروجهم ليلة الجمعة، فإنهم يشيرون إلى حصول الجمع واللقاء، وزوال البعد والشقاء، وإلى حصول الجمع بين تجليات الجمال والجلال والكمال، وإلى حصول جمع الجمع، وهو عبارة عن إعطاء الأسماء الإلهية والصفات حقها إذ هو عندهم الاستهلاك بالكلية في الله، ويشيرون بذلك أيضًا إلى الإشراف على مقام التحقيق بالجمعية الكبرى، ومقامات أخرى يشيرون بذلك أننا قد أطلقنا من ضيق الخلوة إلى قضاء الجلوة ليلة الاجتماع بالمحبوب وزوال الأحزان والكروب، لكننا بحمد الله تعالى لم نتقيد بالنظر إليهما، ولا بالوقوف معهما فعدنا من ذلك أحرار بعدما كنا أسارى، وبعد حصول العتق من نار الأغيار نرجو أن نكون من جملة

العتقاء في هذه الليلة من النار، فإنه قد ورد في الحديث عن السيد المختار: «**إن ليلة الجمعة ويوم الجمعة أربع وعشرون ساعة لله تعالى في كل ساعة منها ستمائة ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا النار**»[1].

وأما إشارة من يدخلون الخلوة ليلة الخميس، ويخرجون ليلة الأحد وهم فرقة الشيخ أبي الصالح خليفة الشيخ أحمد العسالي[2] - رضي الله عنهما - وهم يجعلونها في شهر رجب الحرام، وقد ورد في الحديث أن: «**من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب له عبادة سنتين**»[3].

فأما سر خلوتهم يوم الخميس فيشيرون بذلك إلى أنهم في هذه الخلوة يدركون حقائق **مراتب الأرواح الخمس** وهي: الروح الحساس، والروح الخيالي، والروح العقلي، والروح الفكري، والروح القدسي، وإنهم يتحققون في أسرار الخمس التي بني الإسلام عليها.

وأما سر خروجهم ليلة الأحد فلأنه لما كان الشهر الذي يدخلون فيه يشير إلى مقام الواحدية؛ لأنه قد انفرد وتوحد عن الأشهر الحرم الثلاث جعلوا يوم خروجهم مشيرًا لمقام الواحدية مما منحوا في خلوتهم، وإذا أردت معرفة الفرق بين مقام الواحدية، ومقام الأحدية فراجع «الإنسان الكامل» للجيلي، وغير ذلك من كتب القوم تظفر بالمراد.

وأما سر عملهم المولد الشريف أول ليلة من خلوتهم، وآخر يوم منها فالظاهر أن مرادهم بذلك أن تكون خلوتهم قد بدأت بالصلاة والتسليم عليه، ومعلوم أن أي طاعة أو توسل بدأ بالصلاة والتسليم عليه كانت لهما منزلة القبول عند الحق سبحانه وتعالى، وإذا كان كذلك فحشاه الكريم أنه يرد ما بينهما، وأيضًا

---

(1) رواه الديلمي في «الفردوس» (320/3)، وابن عدي في «الكامل» (418/1).

(2) هو صاحب الكرامات سيدي أحمد بن علي الحريري، العسالي، الشافعي، شيخ الخلوتية بالشام.

ولد بقرية عسال من ضواحي دمشق، وتوفي في 18 ذي الحجة ودفن في عمارته بالقرب من مسجد القدم بظاهر دمشق. من آثاره: ورد الوسائل لكل طالب وسائل. خلاصة الأثر للمحبي 1: 248 - 250.

(3) رواه الطبراني في «الأوسط» (219/2).

فإن في سماع مولده الشريف الذي هو العيد الأكبر عند المؤمنين؛ لأن بسبب هذا المولد الكريم حصل لهم ما حصل من النجاة من العذاب الأليم، والفوز في دخول جنات النعيم كمال السرور للقلوب والأرواح، ونهاية الحبور والبسط[1] والانشراح.

ثم إنهم إذا طابوا بهذا السماع، وطيبوا بشذاه الذي في الأكوان ضاع يدخلون في خلوتهم، ويشاهدون ما منحهم صاحب هذا المولد الكريم في جلوتهم، فتزداد نيران محبته لديهم، وتحدث لهم تلك المشاهدة في كل آن وجدًا، فعند ذلك ترد عليهم خلع الإنعامات الإلهية على يد صاحب المقامات الاصطفائية، ويطاف عليهم بكاسات القبول.

فلئن تابعوا هذا الرسول بما نالوه من القرب والوصول، ثم إنهم إذا هموا بالخروج من الخلوة، فعلوه أيضًا ليخرجوا منها من إمداده عليهم كيف لا؟! وهو الباب الذي لا يدخل إلى الحضرة من غيره، والمراد الذي جمع الوجود من مدده ومن خيره.

قال الأستاذ الشيخ محمد البكري - قدس سره -:

وأنــت بــاب الله أي امــرئ أتــاه مــن غيــرك لا يــدخل

وكيفية عملهم المولد عندنا في دمشق الشام أن يجتمع بعض أشخاص من المنشدين، ويكون فيهم رجل عارف بنسبه، وحافظ لبعض ما ظهر من المعجزات والخوارق من أشهر حمله وولادته، وينشدون في مقدم ذلك بعض قصائد وأشغال في مدحه، ويذكرون ما ظهر في ذلك من عجيب الأحوال، ثم إنه إذا ذكر وقت مولده رئيسهم، وكان هناك جماعة يقوم ويقومون عند ذلك تعظيمًا له ﷺ وشرف

(1) البسط هو كما قال في الفتوح المكي: «هو عندنا حال من يسع الأشياء ولا يسعه شيء»، وقيل: «هو حال الرجاء». وقيل: «هو وارد موجبه إشارة إلى قبول ورحمة وأنس». والقبض ضد البسط.

وقيل في تفسير البسط: «أنه عبارة عن كون النفس فيما هي بسبيله على نشاط وطرب وبهجة يتسع معها لقبول الواردات، وأن القبض ضد البسط».

بسط الزمان: هو جعل ما قصر من الزمان طويلاً، وهذا حال من تحقق بمظهرية باطن الزمان، وأصله الذي هو الآن الدائم، الذي عرفته في باب الألف. وهذا هو الشخص المسمى بصاحب الزمان.

وكرم، وهذا القيام الذي يفعلونه، وإن كان بدعة لكن استحسنه كثير من المتأخرين، ورأوا لذلك أثرًا عظيمًا في نفوسهم، فلذا لم ينكروه مع كونهم من العلماء العاملين.

قال صاحب «السيرة الحلبية»: ومن الفوائد أنه جرت عادة كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وصفه ﷺ أن يقوموا تعظيمًا له ﷺ، وهذا القيام بدعة لا أصل له؛ أي: لكن بدعة حسنة؛ لأنه ليس كل بدعة مذمومة.

وقد قال سيدنا عمر ﷺ في اجتماع الناس لصلاة التراويح: نعمت البدعة، وقد قال العز بن عبد السلام - رحمه الله تعالى -: إن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة، وهي: الوجوب والإباحة والندب والكراهة والاستحسان، وذكروا من كل أمثلة كل ما يطول ذكره، ولا ينافي ذلك قوله ﷺ: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[1] وقوله ﷺ: «**مَنْ أحْدَثَ في أمرنا - أي: شرعنا - هذا ما لَيْس منهُ فهو رَدٌّ عليه**»[2] لأن هذا عام أريد به خاص فقد قال إمامنا الشافعي ﷺ: من أحدث وخالف كتابًا أو سنة أو إجماعًا أو أثرًا، فهو البدعة الضالة وما أحدث من الخير، ولم يخالف شيئًا من ذلك فهو البدعة المحمودة، وقد وجد القيام عند ذكر اسمه من عالم الأمة، ومقتدي الأئمة دينًا وورعًا الإمام تقي الدين السبكي وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره.

فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره، فأنشد منشده قول الصرصري[3] في مدحه ﷺ:

---

(1) رواه الديلمي في «الفردوس» (380/1).

(2) رواه البيهقي في « السنن الكبرى» (119/10).

(3) انظر فيما يتعلق بالمولد الكتاب الموسوعي للعلامة الأزهري الشيخ أحمد بن إسماعيل الحلواني المسمى «مواكب ربيع في مولد الشفيع» [ط. دار الكتب العلمية بتحقيقنا]، وكذا كتاب العلامة العارف سيدي محمد بن علوي المالكي «الإعلام بفتاوى أئمة الإسلام حول الاحتفال بمولده عليه السلام» » [ط. دار الكتب العلمية]، بيّن فيه بما يطمئن به قلب كل مؤمن محب لنبيه الكريم ﷺ ومعظم لدينه القويم أن الاحتفال سنة نبوية وقربة لرب البرية وردّ على جميع شبهات مَن ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ القائلين بعدم جواز الاحتفال.

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب　على ورق من خط أحسن من كتب

وأن تنهض الإشراف عند سماعه　قيامًا صفوفًا أو جثيًا على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكي - رحمه الله تعالى - وجميع من بالمجلس، فحصل أنس كثير بذلك المجلس، ويكفي ذلك في الاقتداء.

وقد قال ابن حجر الهيتمي - رحمه الله تعالى -: والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها، وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك؛ أي: بدعة حسنة[1]، ومن ثمة قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: ومن أحسن ما أبدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق لمولده ﷺ من الصدقات والمعروف، وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقر أشعر بمحبته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذلك وشكر الله على ما منَّ به من اتخاذ الرسول ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين هذا كلامه.

قال السخاوي: لم يفعله من السلف في القرون الثلاثة، ثم حدث بعد ثم لا يزال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، وتظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.

قال ابن الجوزي: من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل المرام، وأول من أحدثه من الملوك صاحب أربيل، وصنف له ابن دحية - رحمه الله تعالى - كتابًا في المولد سماه «التنوير بمولد البشير النذير» فأجازه بألف دينار.

وقد استخرج له الحافظ ابن حجر العسقلاني أصلاً من السنة، وكذا الحافظ السيوطي وردًا على الفاكهاني المالكي في قوله: إن عمل المولد بدعة مذمومة، انتهى.

لكن هذا كله في فعل المولد الموافق ليوم مولده، وأما المولد الذي نحن

---

(1) هو عبد الكريم بن ضرغام، جمال الدين الصرصري الطرائفي: شاعر من القضاة، له: «القصائد الطرائفية المخمسة على ترتيب حروف المعجم» جمعها محمد بن عبد اللطيف بن عبد القادر الرافعي الطرابلسي، وسماها «نفح الطيب من مدح الشفيع الحبيب» وله «أبكار الأفكار في مدح النبي المختار» ما عدا بابا منه هو«التخميس». [الأعلام للزركلي (4/ 52)].

بصدده، فإنما هو مثال للذي يفعل في الليلة التي تكون موافقة لليلة مولده الشريف، فيفعلون مثل ما قدمنا حتى إن كثيرًا من الناس ينذرون عمل ذلك لما يعتقدون في فعل ذلك من الثواب، إذ هو طاعة من طاعات الملك الوهاب، والساعي في الخير كفاعله، فإن الناذر لا يتعاطى ذلك، بل ينتسب في فعله، وكثيرًا ما يفعلونه في المنارات فيكون ذلك سببًا لتنبيه الغافل، وداعيًا له إلى الصلاة والتسليم ﷺ عليه، ويتأهب لربيع مولده الكريم الحاوي ذلك اليوم لكل فضل جسيم، لكن ينبغي لمتعاطي ذلك ألا ينشد من القصائد والأشغال إلا ما كان في مدحه الشريف، ومنها على مقامه المنيف، ومعلوم أن في ذكر مولده الذي ما حصل للأكوان والدين سرور مثل ما حصل بليلته التي هي أفضل من ليلة القدر التي اختص بها هو وأمته إن قلنا: إنه ولد ليلاً، ولله در البوصيري حيث يقول في ذلك:

ليلةُ المولدِ الذي كَان للدِّيـ ـنِ سرورٌ بيومِهِ وازْدِهاءُ

وتوالَتْ بُشْرَى الهواتفِ أن قدْ وُلِدَ المصطفى وحُقَّ الهَناءُ

يتذكر السامع الواعي ما قد وقع من المعجزات، وما ظهر على يديه من الآيات البينات وما قاساه من أهل العناد، وما لاقاه في حضرة الدين من المدافعة عنه والجهاد، فيكاد من شرب بكاسات محبته، وأينعت أزهار روضة مودته، وتحقق في لطائفه المسداة، وإحساناته المفاضة علينا أن يذوب من فرط حبه السامي، وأن يسكب الدموع من الجفون الدوامي.

واعلم أنهم يشيرون بالمولد الأول الذي يفعلونه إلى طلب تولد الأسرار الإلهية في قلوبهم من محض الجود الإلهي، إذ ذاك لا يكون إلا بمحض الجود والمنة الإلهية لا بجد واجتهاد.

ولقد أشار إلى ذلك سيدي الشيخ أبو بكر الشبلي بقوله لما سئل: هل يبلغ الإنسان بجهده إلى شيء من طرق الحقيقة أو الحق؟ فقال: لا بُدّ من الاجتهاد والمجاهدة، ولكنهما لا يوصلان إلى شيء من طرق الحقيقة؛ لأن الحقيقة ممتنعة عن أن تدرك بجهد واجتهاد، وإنما هي مواهب من الله يمنحها العباد، فيصلون إليها بإيصاله إياهم، والمجاهدات أمارات قد تخطئ وقد تصيب.

ثم إنهم يشيرون بعمل المولد الثاني إلى نيل ما طلبوه، والتحقق فيما وهبوه

من تولد الاعتبار في الأفكار، وفي النفوس عدم الإدبار، وفي روضات القلوب الإثمار والإزهار، وفي مشهد الوجود الفناء والبوار، وفي الأسرار الأنوار، وفي المشهد القلبي شهود الواحد القهار مع انمحاق الحجب الوهمية والأستار، فتحقق فعلى هذا المدار وافهم المراد تكن من الشطار.

وأما سر اكتحالهم آخر يوم منها، وعدم اكتحالهم فيها وإن كان البعض يكتحلون فيها لكن من كمال إشارتها عدم الاكتحال فيها إلى آخر يوم منها لما ستعرفه؛ وذلك لأن المريد مادام في خلوته فهو سائر إلى مطلوبه زاهد فيما سوى مرآته، وهو كالمحرم مادام قاصدًا إلى أن ينتهي إلى مطلوبه ويرجع راشدًا.

وفي الحديث: «**إن للشيطان كحلاً ولعوقًا، فإذا كحل الإنسان كحله نامت عيناه، وإذا ألعقه من لعوقه درب لسانه بالشر**»[1] وفي رواية: «**إن للشيطان كحلاً ولعوقًا ونشوقًا أما لعوقه فالكذب، وأما نشوقه فالغضب، وأما كحله فالنوم**»[2] فإذا ترك المريد الاكتحال في أيام الترحال، وما اكتحل برقاد وصاحب الأرق والسهاد، فقد كفي شر الشيطان، ودخل حصن الرحمن، وإذا لم يعرج على الغير، ولأسرف في السير كان مرادًا محبوبًا وطالبا مطلوبًا، وفي ترك المريد أيضًا له في تلك الأيام إشارة إلى الكف عن شهود غير المرام، وفي معنى تركه أشرت بقوله: وفي ترك كحل الجفن كف عن السوي، لمسترسل في شهد الأحدية.

ثم إذا تحقق الطالب بحقائق ذلك المحبوب، وأفاض عليه من سحائب علوم الغيوب، وانقضت أيام الطلب، وحظي بما أمله من الأرب، فعند ذلك يكتحل بإثمد المشاهدة، وينال الملاطفة والموادة، لكنه لا يمكنه بعد ذلك ترك المكابدة والمجاهدة، إذ بهما تدوم له المساعدة، وقد أشرت إلى ذلك في القصيدة التي أولها «تجلى لي المحبوب» بقولي:

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (103/3)، وابن أبي الدنيا في «المكايد» (ص 97، رقم 77)، وابن عدي (374/3، ترجمة 805 سعيد بن بشير)، والطبراني (206/7، رقم 6855)، قال الهيثمي (262/2): فيه الحكم بن عبد الملك القرشي، وهو ضعيف. والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (ص 36، رقم 45)، ورواه أيضًا: الروياني (49/2).

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (209/4)، وأبو نعيم في «الحلية» (309/6)، وابن عدي (133/3).

فكحل جفوني بعد نيل وصالها بأنوارها فيه معارف جمة

وفي فعله وترا فتلك إشارة إلى نفي إثنينية ذات علة

وقلت أيضًا:

كحل عيونك في شهود الذات من إثمد التحقيق والإثبات

وافتح جفونك عند مرور سرها لتزول عنك كثائف الغشوات

واجعله وترا إن أردت بأن ترى في عين قلبك سروريات

وقلت في ذلك:

بصر البصيرة قد سما لما انمحت حجب العمى

وغشاوة بالعين قد زالت بأنوار الحمى

ومذ اكتحلنا باللقا فزنا بسر قد سما

وبدت لنا شمس الوصال وغاب ليل أدهما

والعين نقطتها انمحت وعن الحشا زال الظمى

وحقائق الغيب انجلت لما بدى سر العمى

فافهم وكن ذا فطنة ودع التغزل بالدما

وأيضًا فإن المريد عنده هذا اليوم؛ أي: يوم خروجه من الخلوة إلى الجلوة يوم عيد، وإنما سمي العيد عيدًا؛ لأن لله فيه عوائد الإحسان، ولعوده بالسرور غالبًا وتفاؤلاً، ويستعمل في كل يوم فيه مسرة، ولا شك أن في يوم الخروج من الخلوة عند أهلها كمال السرور والفرح والحبور، فهو لا شك أنه عندهم يوم عيد وفيه يستحب التزين، ومنه الكحل ومعلوم أن أيام العبادة كلها أعياد.

ولهذا لما سئل بعض الرهبان، وقيل له: متى عيدكم؟ فأجاب بقوله: كل يوم لا يعصى الله تعالى فيه فهو عيد، ومادام العبد مشاهد المحبوب فكل أيامه أعياد.

ولقد أشار إلى ذلك سيدي عمر بن الفارض - قدس سره - بقوله:

وعنديَ عيدي كُلَّ يومٍ أرى به جَمالَ مُحَيَّاها بعَينٍ قريرةِ

ولقد قلت في ذلك:

للناس عيد وعيدي رؤيتي لكم ... وتلك والعهد لي من خير أعيادي

يا سادة عودوني عود وصلهم ... متى تقيدون لي وعدي بميعادي

عيدوا وعيدي وعيدوا متلفًا بكم ... فالعود أحمد يا أوتار أعوادي

وأنشد سيدي محمد البكري في ذلك قوله:

عدوا لأعيادهم عيد وأعيادي ... دامت بلقياك في غيب وإشهاد

فإذا انجلت العين وزالت حكم الأين والبين، وارتفعت الحيرة عن عين البصيرة، وقويت العين الباصرة بعدما اكتحلت بإثمد التقوى، وهي قاصرة، فتكون العين القلبية قد قويت بالمشاهد الحقية، وانتقت منها مشاهد الإثنينية، وثبتت لها شهود المقامات الفردية، ثم إنهم بعد ذلك المقام يطاف عليهم بماء ورد الورود، وببخور الندى والعود، إشارة إلى الراحل أن إلينا عود، وتتفرق الكرام.

وقد بلغوا المرام وفهموا سر الختام، ويذهب كل منهم بسلام في سلام، فإن قال قائل: فمن أين للخلوتية الدليل على إقامة الذكر الجهري ليلاً ونهارًا؟ مع أن الشيخ الشعراني قد ذكر في رسالة له قال: واحذر من الذكر في أوقات مخصوصة، وأن تختلي وتذكر يومًا وليلة متوالية وأيامًا، فإن ذلك مما يقسي القلب.

وقد جربنا ذلك؛ لأن هذا الذكر لا يكون إلا مع الغفلة إذ حضرة الحق حضرة بهت وسكوت لا لفظ فيها، ولا يمكن فيها رفع صوت بذكر ولا غيره، والمراد بذكر الله كثيرًا أن يتوالى على العبد شهود أن الله تعالى ناظر إليه، وأنه في حضرته وهو أولى من شهوده الحق؛ لأن ذلك فيه سوء أدب كما لا يخفى قال الله تعالى في صفة نبيه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:17]، فاعلم ذلك فإنه من لباب المعرفة، والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين.

قلنا أولاً: إن هذا الكلام الذي ذكره الشيخ إنما هو مع الكاملين؛ لأن هذه الرسالة قد جعلها في المدعين للمشيخة في زمانه، والخلوتية إنما جعلوا هذه الخلوة للمبتدئين، وأما أهل النهاية فهم دائمًا في خلوة مع الحق، وخلوتهم في الملأ كما قدمناه في أوائل هذه الرسالة، وأيضًا فإنا لا نسلم أن الخلوتية ملازمين على الذكر ليلاً ونهارًا، بل هم يشتغلون عنه بنومهم تلك الساعة، وعند إفطارهم إلى

العشاء، وبإسباغهم الوضوء وقضاء الحاجة، ثم إن سلم فدليل الخلوتية قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:191]، وغير ذلك من الآيات.

وأما دليل الشعراني - قدس سره - من أن الذكر الجهري يفني قلب الملازم عليه ليلاً ونهارًا؛ فلأن القلب محل التجلي الإلهي، وبذلك يحصل له الفيض الأقدس والسر الأنفس، فإذا كان الذاكر لا يفتر عن الذكر ليلاً ونهارًا فنسي قلبه لغفلته واستغراقه في الذكر عن المذكور، ولهذا ورد: «**من ذكرني لم يشهد، ومن شهدني لا يذكر**»[1] فإن من غلبت عليه المشاهدة، وحصل له مقام الغيبة عما سوى المذكور به لا يذكر؛ لأنه قد حصل له مقام الشهود فإذا ذكر المشاهد واستغرق ليله ونهاره ففنى قلبه لانحجابه بالصفة عن الذات.

وأما إذا كان في ذكره مستغرقًا بالمذكور فانيًا به عن شهود غيره، فإنه يفنى الذاكر هناك حتى يبقى قلبه.

وأما إذا كان باقيًا مع مسلم يبلغ درجة الكمال في شهوده، فالذكر في حقه مطلوب، لكن ينبغي أن يجعله تارة وتارة؛ لأن من كشف له عن السر المصون والجوهر المكنون، ولم يصير يشاهد مذكوره، ولم يفنى عن حسه، فينبغي له أن يذكر مرة ويشاهد أخرى؛ لأن صاحب هذا المقام صاحب تلوين.

وأما إذا بلغ مقام التمكن[2]، فهناك يستوي عنده الذكر والهمس، وإن كان

---

(1) لم أقف عليه.

(2) عبارة عن غاية الاستقرار في كل مقام، بحيث يصح لصاحبه القدرة على التصرف في الفعل والترك، وأكثر ما يطلق في اصطلاح الطائفة على من حصل له البقاء بعد الفناء، وتارة يطلق التمكن على ما قبل ذلك من المقامات ولهذا جعلوا التمكن على مراتب ثلاث:

تمكن المريد: هو أن يجتمع له صحة قصد يسيره، ولمع شهود يحمله، وسعة طريق تروحه. هكذا ذكر الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري، وعنى بصحة القصد: العزم الجازم الذي لا تردد معه، ولا شائبة تمازجه، وعنى بلمع الشهود: مبادئ التجليات، وعنى بسعة الطريق: كثرة البوارق التي تطرد بنورها تفرقة لمريد، وتجمع همته.

تمكن السالك: أعني من ترقى في إرادته بالسلوك على المقامات، ولم يصل بعد إلى مقام المعرفة، وهو أن يجمع له صحة انقطاع عما يعرفه من الأغيار عن الحق عز شأنه، وبرق كشف قد عرفته، وصفاء حال عن كل شائبة تفرق عليه جمعيته، أو توهن عزمه.

الثاني من أخلاق أهل الحضرة لكن الكامل من يعطي كل مقام حقه، فمن حيث العبودية ذكر، ومن حيث الربوبية همس، وقد تكلم على ذلك في رسالة «الغيبة».

ثم إياك يا أخي أن تقول: إن هذه ثلاثة أيام فلأجد فيها على نفسي، فإني في غد أخرج منها، ويخفّ عني ما أنا فيه، فإن هذه فعل أصحاب الهمم الدنية.

وأما أصحاب الهمم العلية فإن الأوقات كلها عندهم أوقات جد واجتهاد، فلا تقل: هذا يوم الجمعة، وهذا شهر رمضان، أو هذه الأشهر الحرم حتى اجتهد فيها أكثر من غيرها، فإن الصادق في سلوكه لم يبق عنده قدرة على الاجتهاد إلا بذلها في سائر الليالي.

قال سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «العهود الكبرى»: وليحرس العبد من تلبس النفس بميلها إلى الكسل والرخص، فإنهم قالوا: إن بذل الإنسان استطاعته في التقوى أشد من تقواه حق تقاته، وذلك أن تقوى الله تعالى حق تقاته: أن يعلم العبد أن تقواه من الله تعالى، ولولا أنه قواه على ذلك ما قدر أن يتقي.

وأما تقوى الله بحسب الاستطاعة فهو: أن يبذل قوته في التقوى بحيث ألا يبقى من قدرته بقية قط، وهذا عزيز فإنه لا بُدّ أن النفس تخلي من قوتها بقية تتنفس بها، ولا يخرج من ذلك إلا الأكابر من الأولياء، وغالب الناس يظن أن تقوى الله حق تقاته أشد وأشق وليس الأمر كذلك، ولا تصل يا أخي إلى معرفة تميز حظ النفس مما هو لله تعالى إلا بعد السلوك على يد شيخ مرشد يخرجك من حضرات التلبيس[1] والله غفور رحيم، فالأيام كلها عند العاقل يوم جمعة، والليالي ليلة قدر،

=

تمكن العارف: هو أن يحصل في الحضرة فوق حجب الطلب لابساً نور الوجود، ونعني بالحضرة: حضرة الجمع التي ستعرفها، فإنها فوق حجب الطلب، لأن الطلب لا يكون إلا مع فقدان المطلوب، وهذه حضرة وجدان، لا فقدان المطلوب، وهذه حضرة فقدان لا وجدان معها، وإنما صار الواصل إليها لابساً نور الوجود، لأنه ما وصل إليها حتى فني عن وجوده، فصار بقاؤه إنما هو بوجود الحق تعالى.

(1) ويقال: اللبس، ويقال: عوالم اللبس، وكل المراد بذلك تلبس الذات الأقدس في عوالم اللبس بلباس الصفات والأسماء، ثم بلباس أحكام مراتب الخلقية من مرتبة الأرواح والمثال والحس، سُمي ذلك بمقام التلبيس للالتباس الواقع فيه، ولهذا قال جعفر الصادق رضي الله عنه: «والعارف يعتبر القدرة، ويجعل العجز تلبيساً». يشير بذلك إلى معنى قول من قال: «ما

=

وإلى ذلك أشار سيدي عمر بن الفارض - قدس سره -:

وكُـلّ اللّيـالي ليلـةُ القَـدْرِ إنْ دَنَـتْ كمـا كـلّ أيّامِ اللّقـا يـومُ جُمعـة

وغالب المريدين يتشوقون إلى هذه الخلوة، وينتظرونها من العام إلى العام؛ لأنهم لا يقدرون على ما يقدرون فيها خارجًا من الاجتهاد، وأما لو كانوا خارجها مثل ما يكونـون فيهـا لا يفتـرون عـن العبـادة؛ لمـا اشـتاقوا إليهـا إلا لأنهـا مجمـع الإخوان؛ ولأنها موسم من مواسم العبادة لا غير.

ولقد أنشد سيدي علي وفا - قدس سره -:

بكـى رمـضان أقـوام وقـالوا مـضى شـهر الـسعادة والغنـائم

فقلـت: دعـوا البكـاء فـإن يُغتـنم علـى التقـوى بَقِـي رمـضان دائـم

فهذا ما تيسر من ذكر أسرار هذه الخلوة، وأما ذكر أسرار الخلوة التي قد اصطلحت عليها أهل الطريق، فإنها كثيرة جدًا لا يقف على تلك الأسرار، ويشاهد ما تضمنته من المعارف الأبكار إلا من أورى فيها زناد الاجتهاد، وقطع نار التعلق بغير المراد، وانكشف له عن أسرار المعاني،واتضحت لديه دقائق المباني.

والحمد لله على الدوام، ما ناح الحمام على الآكام، وحسن مقام، وقام على الأقدار، متيم قد هام في هاتيك الخيام، وأهل ذياك المقام، والصلاة والسلام ما ذهب الظلام، وأصبح الصبح وفاض الغمام، على السيد المقدام وأصحابه الأعلام، وأتباعـه إلـى يـوم القيـام، وصـلّ اللهـم عليهم علـى مـدى الـدوام، والحمـد لله رب العالمين آمين.

تم بحمد الله

=

رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه»»، وذلك لأنه لما كانت القدرة لم يخل منها شيء فينبغي أن يعتبر ظهور الحق في صورها التي هي مقدورات، ثم يلحق العجز الذي نشاهده في حقائق مخلوقاته إلى المراتب الخلقية، لأن الحقيقة تأبى إضافة العجز إلى الحق القادر تعالى.